

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01009 2132



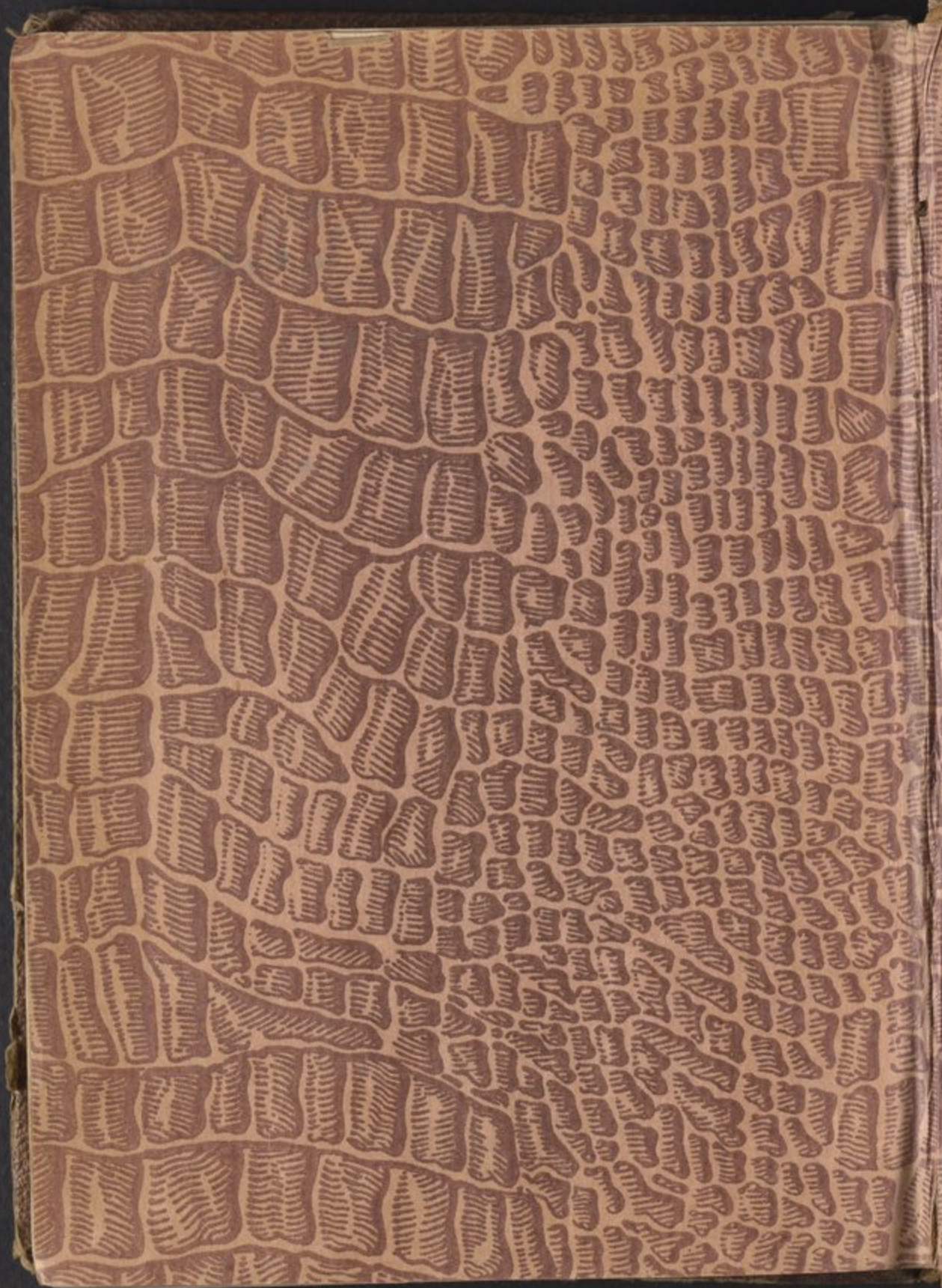
FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding. + + +

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



00-83191

17th APR 2000

18

مختارات المنفلوطي

PJ

7601

M3

1937 (C)

جمعه المرحوم

مصطفى لطفى المنفلوطي

~~مكتبة~~

الطبعة الثانية

١٩٣٧م — ١٣٥٦هـ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصره
لصاحبها: مصطفى محمد

طبعة الاستقامة

بشارع أم الفهد رقم ١٤ بجدة

٥٥٥٥

oelc

60506406

892/73

M 3/35

M 3/35

B 12465392

13822470

٨

مقتولهم - مع

هدية الكتاب

إلى سعادة الأستاذ السيد على يوسف

كان للإنشاء في مصر ديوان أنت رئيسه والكتاب جميعاً
عماله . فأما وقد اعتزلته فائذن لأحد عمال ديوانك أن يقدم
إليك كتابه هذا تذكار وداع تحفظ له فيه ماضى إخلاصه لك
ويحفظ لك فيه سالف أياديك عنده وسلام على عهدك
الزاهر وتاريخك الطاهر ؟

مصطفى لطفى المنفلوطى

تحريراً فى ١٥ مارس سنة ١٩١٢

22096

مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله على آلائه وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وصحبه وآله .
وبعد فقد عرفت حاجتك يا بني أعزك الله إلى كتاب يجمع لك من
جيد منظوم العرب ومشورها في حاضرها وماضيها وفي كل فن
وغرض من فنونها وأغراضها ما تستعين باستظهاره أو ترديد النظر
فيه على تهذيب بيانك وتقويم لسانك وعلمت أنك ان تستطيع أن
تجد طلبتك هذه في مختار من مختارات المتقدمين . ولا في مجموعة
من مجموعات المعاصرين . أما المتقدمون فهم ^{grammarian} بين نحوي لا يعجبه
^{contemporary} من مجموعات المعاصرين .

من الكلام إلا ما يجد فيه مذاق شواهد العلم الذي يعالجه ولا تسكن
نفسه إلا إلى البيت الذي فيه عقدة ^{split it up} يتفككه ^{to make difficulty}
بتأويلها أو نادرة من نواذر الإعراب والبناء يؤيد بها رأياً أو يساجل
بها خصماً . ^{contains in low w/ philologist opponent} ولغوى موانع بما يشتمل على الغريب النادر من مفردات
اللغة وتراكمها فلا يكاد يعدل بشعر الجاهلية وما جرى مجراه شعر
طبقة من الطبقات ولا يرى غير كلامهم كلاماً ولا مذهبيهم مذهباً .
وعصر الجاهلية على ما اعتقد هو عصر الطفولة الشعرية أي أن

الشعر كان فيه بسيطاً ساذجاً لم يهذب العلم ولم تصقله الحضارة ولم
تتصل به أشعة الخيال فتتير ظلمته. فهو وإن كان أصدق الشعر وأحدره
أن يكون صفة صحيحة لتاريخ عصره ولكن قلما يستفيد شاعر الحضارة
من أكثره أكثر من المادة اللغوية. وما الفرق بين شعر الجاهلية
وشعر طبقة المحدثين والمولدين من بعده إلا كالفرق في الموسيقى
بين نغمات الحداثة في أعقاب الإبل ونغمات الضارين على أوتار
الأعواد والبرابط في عصر الحضارة الإسلامية. وعندى أن للنزعة
التاريخية سلطاناً على نفوس المولعين بالشعر الجاهلي أكثر من النزعة
الفنية فمثلهم كمثل المولعين بالعاديات الذين يؤثرون حجر الغرانيت
على حجر الماس ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم منظر
برج ايشل. وراوية همه في حياته أن يدور بيده ليله ونهاره في زوايا
رأسه عليه يعثر بيت لا يعرفه غيره منسوباً إلى قائل لا يعرف نسبته
إليه سواء ثم لا يبالى بعد ذلك أحسن أم أساء. فهو بالمؤرخ أشبه
منه بالأديب. وأديب جمع ما جمعه لعصر غير عصره وقوم غير
قومك وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك فإن أفادك قليله لا ينفعك
كثيره. وأحسب أن ما يتعلق من الشعر بالحماة ووصف الحروب
وأسلحتها ودمائها وغبارها وأشلائها ووصف الإبل في مباركها
والشاء في حظائرها والأبقار في مراتعها هو آخر ما يحتاج المتأدب

refine

polish

primitive

simple

spontaneous

lighter

makes use of colour

components

post-classical

striders

paces

songs

tendency

lute

enamored

of

souls

prefer

obstacles

pyramid

sight

diamond

corners

turning

anxiety

relator

coming across

chronicles

not caring

related

considers

corpses

dust

homicides

arrives

enclosures

إلى النظر فيه في هذا العصر. وبين مطيل قد خُبط جيداً برديته وغلته
بسمينه فلا تصل يدك إلى ما في منجمه من ذرات التبر حتى تتبش
عنها ما لا قبل لك باحتماله من حقائب الرمل. ومقصر يختص
بالاختيار عصراً دون عصر أو فرداً دون فرد أو قوماً دون قوم
أو باباً من أبواب البيان دون باب وهو يعلم أن المتأدب شاعراً كان
أو كاتباً لا يكمل أدبه ولا تصفو قريحته ولا تلعب صفحته بيانه ولا تنحل
عقدة لسانه إلا إذا تمهل في روض البيان فاقتطف ألوان زهراته. من
أنواع شجراته. وأن الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء. عن البكاء
والرثاء. ولا العتاب والود عن التشبيه والوصف ولا البكاء على
المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتى عن البكاء على المجد
الضائع. والمملك الساقط. والغرض المغلوب. والشرف المسلوب
كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبرائه، عن وصفه في حدته
ومضائه. ولا وصف البدر في جماله وروائه عن وصفه في عزته
وخيالاته. ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذنب القطاة ولا تصوير
ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة. وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة
البيان ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه
في جميع مواقفه ومذاهبه حتى يأخذ بأزمة القول جميعاً ويشتمل
على أساليب الكلام بأنواعه ويعلم أن الكتابة في العلم غير الكتابة

في الأدب وأن للخطب أسلوبا غير أسلوب الكتب وأن لكل
 نوع من أنواع العلوم والفنون طريقا في الكتابة خاصا به لا يفارقه
 إلى غيره ولا يشركه فيه سواه وأن الانتقاد غير الهجاء والهجاء
 غير التهكم والتهكم غير التأنيب والتأنيب غير الإنذار والتهديد. وأما
 المحاصرون فهم إما تابع متأثر يعتمد في اختيار ما يختار على نباهة
 النابه وفي أطراح ما يطرح على خمول الخامل ويعتبر التقدم في الزمن
 شافعا يشفع إساءة المسيء والتأخر فيه ذنبا يذهب بإحسان المحسن.
 وإما خابط متقمم يعتمد في الاختيار على يده لا على بصره فيأخذ
 من كل كتاب صفحة ومن كل ديوان ورقة ثم يعرض على الأنظار
 كتابا غريبا في اختلاف ألوانه وتزاييل أوصاله جامعا بين معلقة
 امرئ القيس وألفية ابن مالك في مكان وبين مقامات البديع
 ومقالات صبيان المكاتب في مكان آخر. وإما عالم أديب قد
 حال بينه وبين انتفاع المتأدين بعلمه وفضله وسلامة ذوقه وصفاء
 قريحته أنه يبالغ في سوء الظن بأفهامهم ويذهب في تقدير مداركهم
 مذاهب ما كان لمشله أن يذهب إلى مثلها فتراه يعتمد في اختيار
 ما يختار إلى ما يزعم أنه هو القريب إلى أذهانهم اللاصق بعقولهم
 غير الملتوى عليهم ولا المتعثر بهم فيتبذل كل التبذل ويسف كل
 الاسفاف ويورد في كتابه من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن

matter

criticism

associate

threat

admonition

reproach

mocking

same

depend on

regard

apathetic

apathy

discarding

renewed

improver

benevolence

offence

offence

gratifying

pre-emptor

preference

relies

author

flawlessness

use

discernment

mis-understanding

overdoes

idiology

joined

minds

claim

stoop to

display

vulgarity

broken

stumbling

curved, tortuous

triviality

يكون مادة للطفل في هجائه . لامادة للأديب في بيانه . وسبيل

كتب المختارات التي يراد منها غرس ملكة البيان في نفس المتأدب ^{talent planting}

غير سبيل كتب العلم التي لا يراد منها غير حصول ماتشتمل ^{matters}

عليه من قواعد العلوم ومسائلها في ذهن المتعلم . ولن تستقر ^{roving}

ملكة البيان في النفس حتى يقف المتأدب بطائفة من شريف القول ^{rational fixed}

منظومه ومشوره وقوف المستثبت المستبصر الذي يرى المعنى بعيداً ^{prosae poetical}

فيمشي إليه أو نازحاً فيستدنيه أو محلقاً فيصعد إليه أو متغلغلاً ^{far-reaching ascends far above draws remote}

فيمشي في أحشائه حتى يصيب لبه ولا يزال يعالج ذلك علاجاً ^{working at mind obtains bowels}

شديداً ينضح له جبينه وتظهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته ^{befuddled whiffs dazzle forehead sweat}

بالكيفية التي يريدوها . وما رأى هذه النكبة العامة التي أصابت ^{argue misfortune aimed at particulars}

الناشئين في ملكاتهم الكتابية وما رزؤوا به من فضوب مادتهم ^{study sterility afflicted by youth}

اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية في التصور والتخيل ^{imagination alien purpose desire}

إلا أثراً من أثر تلك المختارات التي يجمعها لهم الجامعون جمعاً مخفوفاً ^{surrounded}

بالحذر والاحتياط بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوسواس ^{anxieties prudence}

فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق والمواعظ والزهد ^{abstemious warnings characteristics overload}

وأمثال ذلك مما لا يكاد يترأى فيه قلب الشاعر ولا تتجلى فيه نفس ^{find expression}

الكاتب ويفرون الفرار كله من كل ما يتعلق بوصف جمال الطبيعة ^{natural beauty related flight flee}

أو جمال الصناعة أو تصوير عواطف النفوس ووجداناتها في الخير ^{goodness ecstasies conjunction}

suspicious

ignorance

evil

والشر والعرف والنكر كأنما يحسبون أن كل بيت غزل بيت ربية

tavern

وكل وصف خمر حانة شراب . وما سمعنا من قبل ولا نحسب أن

seduced

corrupted

listeners

سيسمع السامعون من بعد أن متأدباً أفسده ديوان غزل أو أغراه

reply

throws back

بالشراب وصف خمر لابل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم

urbane

comrades

من فساد الخطاء أو ضلال المؤذنين

depicting

contained

أما الشعر المشتمل على وصف الجمال والنثر المتضمن تصوير

nonsense

as

long as sincere desires

دقائق المعاني النفسية والخواطر القليسة ما دام بعيداً عن فاحش

expansion

medium helpers

separated

القول وهجره فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان

requesting the apple

creative

في نفس الناشئ . لذلك لم أر بدا من أن أستخير الله تعالى في أن أجمع

most relevant

book

لك يابني في هذا السفر من جيد المنظوم والمنثور ما أعلم أنه ألصق

reason education

most useful

most appropriate

بك وأدنى إليك وأنفع لك في تثقيف عقلك وتقويم لسانك

shake

incorrectness

remains analysis

وتحليل ما أسأرتة الأيام من العجمة في قلبك ولسانك فهزرت لك

ripe

scattering

branches of the tree

دوحة الأدب العربي هزة تناثرت فيها هذه الثمرات الناضجة التي

studied

تراها بين يديك ولم أترك من ورأى في جميع ما تصفحته من دواوين

adulterated base

anthologies

الشعر ومجاميع الأدب وكتب المختارات إلا ما كان رديئاً أو مشوباً

degree

repute

extension

defects

abandonment

بشيء من هجر القول ومعيبه أو بالغاً من الشهرة والسيورة منزلة

excellence

involved

observer

is not mistaken

لا يخطئها نظر الناظر أو واقعا في منزلة بين الجودة والرداءة . وقد

style, method

testing

foundation

جعلت قاعدتي في الاختبار جمال الأسلوب أولاً وجمال المعنى ثانياً

فربما أختار ما حسن لفظه وتوسط معناه وقد أختار ما توسط
لفظه وسمي معناه كما صنعت في بعض مختارات قسم المنشور من الباب
الأول وهو باب الفصاحة والبيان ولكني لا أختار بحال ما كان
معناه سامياً ونظمه فاسداً. أما الجيد فقاعده عندى ما يأتى « كل
كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه الأثر
الذي أراده الكاتب منه على شرط ألا يجد فيه مسحة تدل على أن
صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغاً فهو بليغ » ولا أكتمك أنى
قد استجزت لنفسى ما استجاره لأنفسهم المختارون قبل فتصرفت
في قليل من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير
والاختصار والإبدال والحذف. ولقد لقيت في هذا السبيل وفي
كل سبيل سألته إلى جمع هذه المختارات عناء كثيراً لا أسألك يا بنى
عليه أجراً إلا أن تنصيح بما أنصحك به في كلمتي هذه، وهى أنك
أن تستطيع أن تتفجع بهذه المختارات إلا بشروط ثلاثة: أولها أن
تملأ قلبك من الثقة بها والسكون إليها حتى لا يصرفك عنها صارف
ولا يخدعك عنها خادع. وثانيها أن تقف بها وقوف الدارس المتعلم
لا وقوف المتنزه المتفرج فلا يمنعك فهم ما فهمته من معاودته وترديد
النظر فيه حتى ترشيف من الكأس مالمها ولا تصعب ما يتصعب عليك
من مراجعته والاختلاف إليه والتغلغل في أحشائه فإنك لا بد ما خض

lofty
lofty
(rather)
(lofty)
order
(intended)
shoddy thing
conceal
profundity, eloquence
disposed freely
anthologists
deemed permissible
putting back
presentation
shortening
substitution
condensation
toil
traveled
(counsel)
false advice
recompense
(will not)
distract
trust
fill up
educated
old
hold back
(deceit)
deceive
repetition
reapplying
stop
observer
walk, promenade
making
drugs
drain
single out
bowels
penetration
diversity
repetition

زبدته ومُصِيب ليه. وثالثها أن تحمي نفسك النظر في هذه المخطوطات ^{core correct essence}
 المختلفة التي تتجدد كل يوم أمام عينيك في أسفار هذا العصر ^{newspapers books revived}
 فإن التربية الكتابية مثل التربية الأخلاقية يسرى فيها الداء ثم يعوز ^{needed disease dispelled moral education}
 منها الدواء. اللهم إلا ما كان من أمثال ما يكتبه الكتاب الذين ^{except that treatment}
 اخترت لهم في هذا الكتاب في المعاني التي عرفوا بها وبرزوا فيها. ^{cause to bring out}
 فإن أنت أخذت بنصحتي وعنيت بها العناية كلها وكنت بمن رزقهم ^{bless regard it carefully good advice}
 الله قريحة خصبة صالحة لنماء ما يغرس فيها من البذور الصالحة ^{good seeds planted growth useful abundant talent}
 بلغت ما أردت لنفسك وما أردت لك إن شاء الله تعالى ^{(struggles) ripen}

مصطفى لطفى

المنفلوطى

باب الفصاحة والبيان

قسم المنظوم

قوة الحجة

« لأعرابي »

وداهية داهى بها القوم مفلق | شديد بعوراء الكلام ازومها (١)
أصخت لها حتى إذا ما وعيتها | رميت بأخرى يستدير أميمها (٢)
ترى القوم منها مطرقين كأنما | تساقوا بكأس ما يبل سليمها (٣)
فلم ترني فها ولم تر حجتي | ملجلجة أبغى لها من يقيمها (٤)

(١) عوراء الكلام معيه والازوم العض * ولقد أنصف هذا الأعرابي خصمه فوصف حجته بالقوة إلا أنه شكاً منه ما لا يزال يشكو منه الناس حتى اليوم وهو استعانة الخصم على خصمه في المناظرة بالهجو والعيب

(٢) الأميم المضروب على أم رأسه * في هذا البيت أدب جميل من آداب المناظرة وهو أن يصنى المناظر لأقوال مناظره حتى يستوعبها ثم يدلى بحجته

(٣) بل : برى . والسليم : اللديغ

(٤) الفه والفهيه : العبي

تهذيب الشعر

« لعدى بن الرقاع »^(١)

وقصيدة قد بُتُّ أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها^(٢)
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافته منادها^(٣)

وصف القلم

« لأبي تمام »^(٤)

لك القلم الأعلى الذى بشباته

تصاب من الأمر الكلى والمفاصل^(٥)

(١) « عدى بن الرقاع »

أحد شعراء العصر الأموى معدود فى الطبقة الثانية وإحسانه قليل
ونسبه الغاية فى الإحسان (٢) السناد كل عيب فى القافية قبل الروى

(٣) ثقف الرمح : قومه . وكعوب الرمح : عقده . والمناد : المنحنى

(٤) « أبو تمام »

ت ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائى أحد شعراء الطبقة الأولى معروف بحسن
مراثيه وبديع وصفه وابتكار معانيه وعييه التكلف والافتتان بالصناعة
اللفظية فى أكثر شعره

(٥) الشبابة : حد السيف . يريد أن قلبه يصيب الغرض ويصادف المحز

لله الخلوات اللاء لولا نجحها
 لما احتفلت للملك تلك المحافل (١)
 لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
 وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل (٢)
 له ريقه طل ولكن وقعها
 بآثاره فى الشرق والغرب وابل
 فصيح إذا استنطقته وهو راكب
 وأعجم إن خاطبته وهو راجل
 إذا ما امتطى الخنس اللطاف وأفرغت
 عليه شعاب الفكر وهى حوافل (٣)
 أطاعته أطراف القنا وتقوضت
 لنجواه تقويض الخيام الجحافل (٤)
 إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت
 أعاليه فى القرطاس وهى أسافل (٥)

(١) النجى: المسارر، والاحتفال: حسن القيام بالأمر (٢) الأرى: العسل
 واشتارته: استخرجته، والعواسل: التى تستخرج العسل (٣) الحوافل
 الممتلئة (٤) تقوضت: انتقضت، وتقويض الخيام: أى كتقويض الخيام
 والجحافل: فاعل تقوضت (٥) استغزره: وجده غزيراً

وقد رَفَدَتْهُ الخنصران وسَدَّدَتْ

ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل (١)

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مَرْهَفٌ

ضَنَى وَسَمِينًا خُطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ

تهذيب الشعر

« للبحترى » (٢)

حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصاتها القوافي هجنت شعر جرول وليد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنب ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلال البيض إذا رحن في الخطوط السود

(١) رَفَدَتْهُ: أَعَاتَتْهُ، وسَدَّدَتْ: قَوَّمت.

(٢) « للبحترى »

ت ٢٨٣ هـ

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي أنضل الشعراء حسن ديباجة
وجمال أسلوب وأحسن ما يجيد فيه الوصف والوصف لب الشاعرية
وجوهرها.

سحر البيان

«لابي تمام»

كشفتُ قناع الشعر عن حُرّ وجهه وطيرته عن وكره وهو واقع
بغر يراها من يراها بسمعه ويدنو إليها ذو الحجا وهو شاسع
يود ودادا أن أعضاء جسمه إذا أنشدت شوقاً إليها مسامع

وصف قصيدة

«لابن الرومي» (١)

نظم الفكر درّهما غير مثقو ب إذا الدرّ شين بالتشبيب
لم يعبها سوى قواف تشاغلن عن المدح فيك بالتشبيب
يطرب السامعين أيسر ما فيها وإن أنشدت بلا تطريب
سوّدت فيك كل بيضاء تسويداً تراه العيون كالتذهيب
لو يناغى بيانها العجم يوماً عرب العجم أيّما تعريب

(١) «ابن الرومي»

ت ٢٨٣ هـ

هو علي بن العباس أقدّر الشعراء على اختراع المعاني الغريبة والافتنان
فيها وله في باب الهجاء قذع وإيلام وتنزل إلى هجر القول أحياناً وعييه أن
في كثير من شعره ركة وتكلفاً وأن في بعض قوافيه قلقاً واضطراباً

سيرورة الشعر

« للمتنبي » (١)

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مفرداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما بشعرى أتاك المادحون مردداً

سهولة الشعر

« لبشار بن برد » (٢)

عميت جنينا والذكاء من العمى فحمت عجيب الظن للعلم موئلاً
وغاض ضياء العين للعلم رافداً لقلب إذا ماضيع الناس حصلاً
وشعر كزهر الروض لا امت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلاً

(١) « المتنبي »

ت ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور يعلو فلا يجاريه مجار
ثم ينحط أحياناً فلا يساوى أصغر شاعر فاذا أسقطنا رديته رأينا أنه أشعر
الشعراء أولاً وأخيراً وأقدرهم على إلباس أدق المعاني وأتمها أجل الأثواب
وأبدعها .

(٢) « بشار بن برد »

ت ١٦٢ هـ

شاعر جزل نفخ محكم الأسلوب بديع الافتتان يجيد في كل نوع من
أنواع الكلام وهو أول من نقل الشعر من البداوة إلى الحضارة

شعر فيكتور هيجو

«لحافظ إبراهيم»^(١)

ما تغور الزهر في أكامها ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤا كشايا الغيد أو كالحب
عند من يقضى بأبهى منظرا من معانيه التي تلعب بي
يسمت للذهن فاستهوت نهي مغرم الفضل وصب الأدب

ديوان الفريد دي موسيه

«خليل مطران»^(٢)

وهي أبيات كتبها إلى فتاة متأدبة أهدي إليها هذا الديوان

(١) «حافظ إبراهيم»

شاعر من شعراء الطبقة الأولى وكاتب من أوائل الكتاب وله في باب
الاجتماع ما لا يلحقه فيه لاحق وشعره سائر في جميع الأقطار العربية
ويمتاز باقترانه على الجمع بين السلامة والرفقة والجزالة والفخامة وهو أحد
الذين أحيوا موات اللغة العربية باستعمال غرائب مفرداتها ونادر تراكيبها
في شعره ونثره ولا أعرف بين أدباء العصر أصح منه ذوقا في التمييز بين
جيد الكلام ورديئه

(٢) «خليل مطران»

شاعر راقى الخيال بديع التصور يجيد في كل شيء حتى في المدائح النبوية
التي هي أبعد المعاني عن ذهنه وكاتب لا أعرف له شيئا في القدرة على تصوير

عاش هذا الفتى مجباً شقيّاً وقضى عمره مجباً شقيّاً
وبكى دمع عينه في سطور جعلته على المدى مبكياً
منشد للغرام لم يشدْ إلّا كان إنشاده نواحاً شجياً
شاعر كان عمره بيت تشييب وكان الأنين فيه الروياً

جزئيات المعاني وأدق ما في أعماق القلوب إلّا أن اضطرّاه ببعض اللغات
الأجنبية وحرصه على المعنى قبل كل شيء يزحزح ديباجته أحياناً عن
الأسلوب العربي والمنهج المطبوع فهو في المتأخرين أشبهه بابن الرومي
في المتقدمين .

قسم المنشور

صناعة الإنشاء

« لابن المعتز » (١)

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك فان
قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ وأشرف حسباً وأحسن في الأسماع
وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجاب لكل عين وغرة
من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما
يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف
والمعاودة ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا تصدا (٢) وخفيفاً
على اللسان سهلاً وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر
فان التوعر يُسلبك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك
ويشين أفاضلك ومن أراغ (٣) معنى كريماً فليأتدس له ألفاظاً كريماً

(١) « ابن المعتز »

ت ١٨٣ هـ

هو بشر بن المعتز أحد علماء الكلام ورئيس فرقة من المعتزلة تسمى
باسمه وكان خطيباً مفوهاً وعالمًا جليلاً

(٢) القصد : المعتدل (٣) أراغ : طلب

فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما
يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك
قبل أن تلتبس إظهارهما وترتهن نفسك بملا بستهما وقضاء حقهما
وكن في إحدى ثلاث منازل أو لاها أن يكون لفظك رشيماً عذباً
ونحماً سهلاً ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند
الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة
أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك
ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على
الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من
المقال فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلبك ولطف
مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها
الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفون عن الأكفاء فانت
البليغ التام . فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتيك ولا تسنح
لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم توقع موقعها
ولم تصر إلى قرارها من أما كنها المقسومة لها والقافية لم تحل في مركزها
وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها
فلا تُكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها فانك إذا
لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم يعبك

بترك ذلك أحد وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً
لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من أنت أقل عيباً منه ورأى
من هودونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكاف القول وتتعاطى
الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك البيان بعد
إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودعه يياض يومك أو سواد
ليلك وعاولده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة
والمواتاة إن كانت هنالك طبيعة أو كنت جريت من الصناعة على
عرق فان تمنع عليك الأمر بعد ذلك فالمنزلة الثالثة أن تتحول من
هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك لأن النفوس
لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود
به مع المحبة والشهوة .

الإرتاج

« لأحد أمراء العباسيين »

وقد صعد المنبر ليخطب فأرتج عليه فقال :

أما بعد فقد يجد المعسر ويعسر الموسر ويقل الحديد ويقطع
الكيل وإنما الكلام بعد الإخام . كالإشراق بعد الإظلام . وقد
يعزب البيان ويعتقم الصواب وإنما اللسان مضغة من الإنسان يفتقر
بفتوره إذا نكل . ويثوب بانبساطه إذا ارتجل . ألا وإنا لا نتطق

بطراً ، ولا نسكت حصراً . بل نسكت معتبرين . وننطق مرشدين ،
ونحن بعد أمراء الكلام فينا وشجت عروقه وعلينا عطف أغصانه
ولنا تهدلت ثمراته فتخير منه ما حلولى وعذب ونطرح منه ما المولح
وخبت ومن بعد مقامنا مقام ، وبعد أيامنا أيام . يعرف فيها فضل
البيان وفصل الخطاب والله أفضل مستعان .

فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم

« للجاحظ (١) »

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق وجانب أصحاب التعيير
واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر
وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن
ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة وشيد بالتأييد
ويسر بالتوفيق وألقى الله عليه من المحبة وغشاه بالقبول وجمع له

(١) « الجاحظ »

ت ٢٥٥ هـ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر العالم المشهور والكاتب القدير وله على جميع
الكتاب قاطبة مزية الإحسان والعلو في كل موضوع يطرقه حتى
في المواضع التي لم يألّف أدباء الكتاب الكتابة فيها وربما كان كتابه
الحيوان أبلغ كتبه وكان في كتابته كثير التوسع والاستطراد والخروج
من غرض إلى غرض حتى يكاد يقع أحياناً في الغموض والإبهام

بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه
عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت
به قدم بل يُبذ الخُطْبُ الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات
الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج
إلا بالحق ولا يستعين بالخلافة ولا يستعمل المؤاربة ولا يهمز ولا يبرز
ولا يُعطى ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر وما سمع كلاماً قط أعم نفعاً
[ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً
ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً من كلامه صلى الله عليه وسلم

فضل البيان

« للجاحظ أيضاً »

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره وكان معناه في ظاهر
لفظه حتى يخيل لك أن الله عز وجل ألبسه من الجلالة وغشاه من
تور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فإذا كان المعنى
شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه منزهاً
عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث
في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من
قائلها على هذه الصفة أصحابها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يتمتع
من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة .

مقامات الكلام

« لبعض الكتاب المتقدمين »

أول البلاغة اجتماع آلتها وذلك أن يكون الخطيبُ رابط الجأش
ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام
الأمة ولا الملوك بكلام السوق ويكون في قواه فضلٌ للتصرف في كل
طبقة ولا يُدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح
ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى
يصادف حكماً . أو فيلسوفاً عليماً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم
بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلتهم وتتصرف
معه أداته ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً وفي حسن الظن بها مقتصداً
فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها فأودعها ذلة المظلومين
وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أتمها فأودعها اتهام الآمنين .

الأديب غير الكاتب

« للمبرد » (١)

لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي أنه ليس أحد من

(١) « المبرد » ت ٢٨٥ هـ

هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أحد أشياخ اللغة العربية في عصره .

الخافقين تحتلج في نفسه مسألة مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها فأنا
عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو
والكلام المنشور والخطب والرسائل ولربما احتجت إلى اعتذار من
فلته أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ثم
لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ولقد بلغني أن عبيد الله
ابن سليمان ذكرني بحميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها
وأعرض ببعض أهوري فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على
ما أرغبه منها كنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فينصرف لساني
إلى غيره فزيادة المنطق على الأدب خدعة وزيادة الأدب على المنطق هجنة

الفصاحة في الأسلوب

«لأبي هلال العسكري» (١)

إنما يحسن الكلام بسلاسته وسهولته وفصاحته وتخير لفظه
وكتابه الكامل أحد الكتب الأربعة التي عدت أمهات الأدب وكتابه
في تآليفه في الطبقة الأولى من البلاغة إلا أنه كان لا يحسن اختيار الشعر
ولعل ذلك كان لغلبة نزعة اللغة والرواية عليه

(١) «أبي هلال العسكري»

ت ٣٩٥ هـ

هو أحد كبار علماء الأدب وصاحب كتاب الصناعتين الذي لم يؤلف
في بابيه مثله وأسلوبه في كتابه هذا فصيح يدل على أدب جم وذوق سليم

وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل
أطرافه وتشبه إعجازه بهواديته وموافقة مآخره لمبادهيه فتجد المنظوم
مثل المنشور في سهولة مطالعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه
وكمال صوغه وتركيبه . ومتى جمع الكلام بين العذوبة والجزالة
والسهولة والرصانة والرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف
وبعد من سماجة التركيب وردَّ على الفهم الثاقب فقبله ولم يردّه .
وعلى السمع المصيب فاستوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف
وتنبو عن الغليظ والفهم يأنس بالمعروف ويسكن إلى المألوف
ويصغى إلى الصواب ويهرب من المحال وليس الشأن في إيراد
المعاني فالمعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وإنما هو
جودة اللفظ وصفائه . وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه . وليس
يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً مستقيماً أما اللفظ فلا يقنع به
قانع حتى يكون على ما وصفناه

دعوى الأدب

« للآمدى » (١)

يظهر أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين

(١) « الآمدى » ت ٣٧١ هـ

هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى أحد نقدة الكلام المشهورين

سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر لأننا نرى أن الذي يعلم منهم من العين والورق والرقيق والخيل والسلاح والبرز والطيب أكثر مما يعلم من الشعر لا يتهم نفسه في المعرفة بالشعر تهمته إياها في المعرفة بتلك الأشياء لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحظة سببيه واستدارة كفله وبريق شعره وحسن إشرافه وصحة قوائمه وسلامة أعضائه وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة ولكنه لا يقدم على اتباعه حتى يشاور في أمره أصحاب البصر به ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه وصقاله وصفاء حديدته ولكنه لا يمضي فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه ويريد اتباع ثوب الوشي فيروقه منه حسن طرزهِ وكثرة صورهِ وبديع نقوشهِ واختلاط ألوانهِ فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رُقعته وصحة نسجه وخلاص إبريسمه ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها أوردقة معانيها أو ما اشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمهِ ووضع ألفاظهِ في مواضعها وغير وكتابه الموازنة بين أبي تمام والبحرّى من أفضل الكتب الأدبية في دقة النظر وعلو الأسلوب وحسن الاعتدال

ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة . وكأنه قد
يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق
والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه
إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال
سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في
الثن بينهما فضلاً كبيراً بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك
الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربه وطول ملاسته فكذلك
الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة
الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحداً وإيهما أجود في معناه إن
كان معناه مختلفاً وقد ذكر هذا المعنى بعينه محمد بن سلام الجمحي
وأبو علي دعلج بن علي الخزاعي في كتابيهما وحكى إسحق الموصلي
قال : قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي فقلت إن من
الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة . قال وسألتني محمد
الأمين عن شعرين متقاربين وقال اختر أحدهما فاخترت فقال من
أين فضلت هذا علي هذا وهما متقاربان فقلت لوتفاوتا لأمكنني
التدين ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر
عنه اللسان وقيل لخلف الأحمر إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر
وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال إذا قال لك الصيرفي

إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد . فمن سبيل
من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملازمة له
أن يفرض له العلم بالشعر والمعرفة بأغراضه وأن يسلم له الحكم فيه
ويقبل منه ما يقوله ويعمل على تمثاله ولا ينازع في شيء من ذلك
إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم
فيها ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظراً في الخبرة وطول الدربة
والملازمة . واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله وتلاحه
ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة كمنفسه ولا يجد سبيلاً
إلى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس
به ولا أن يأتيك في ذلك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة وإن كان
ما اعترضت فيه اعتراضاً صحيحاً وما سألت عنه سؤالاً مستقيماً . على
أن العلم الذي لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول
الملازمة لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن آخر بمجرد القول والصفة إلا
إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف
سيف مختلفات الأجناس والجراهر بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها
في لحظة واحدة عالماً بكل علة محيطاً بكل حجة وهذا محال غير ممكن
لأحد ولا مستطاع إلا الخالق الخاق وبارئ البشر . وبعد فلعل الذي
غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك

خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تصفحها أحياناً
وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار
فيما يتعاقب بثياب بدنك وأثاث بيتك وطرق نفقتك لأننا نراك لا تبتاع
وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهماً بدينار حتى ترجع
إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع
في مالك فكان خليفاً بك أن تسلم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع
في عقلك ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال.
أو لعل الذي غرك في ذلك أنك شارفت شيئاً من تقسيمات المنطق
وجملاً من الكلام والجدل أو علمت أبواباً من الحلال والحرام
أو حفظت صدرأ من اللغة أو اطلعت على بعض مقاييس العربية
فظننت أن كل ما لم تلابسه من العلوم ولم تزاوله يجرى ذلك المجرى
وإنك متى تعرضت له وأمررت قريحتك عليه نفذت فيه وكشفت
عن معانيه وفاتك أن العلم بجميع أنواعه لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع
إليه والإكباب عليه والجد فيه والحرص على معرفة أسرارها وغوامضه
وقد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ويمتنع عليه جنس آخر
ويتعذر لأن كل امرئ إنما يتييسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته
تعلمه فينبغي أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك وتقنع بما قسم
ولك لا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك

مناظرة

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري^(١)

«الآمدى أيضاً»

(صاحب أبي تمام) كيف يحوز لقائل أن يقول إن البحتري
أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ وعلى حذوه احتذى ومن
معانيه استقى حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر

(صاحب البحتري) أما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذه ولا روى
ذلك أحد عنه ولا نقله ولا رأى قط أنه محتاج إليه ودليل ذلك الخبر
المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف
الثغري وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها * أأفاق صب
من هوى فأفيقا * وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها
أبياتاً كثيرة فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف
فقال أيها الأمير ما ظننت أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري
وينشده بحضرتي حتى اليوم ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على
أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحتري ورأى أبو تمام الإنكار

(١) الظاهر أن الآمدى فرض هذه المناظرة فرضاً ليمثل فيها رأى
المتشيعين لذينك الشاعرين

في وجه أبي سعيد فيئذ قال له أبو تمام أيها الأمير والله ما الشعرُ
إلا له وإنه أحسن فيه الإحسان كله وأقبل يقرظه ويصف معانيه
ويذكر محاسنه ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة
فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه
قبل أن يعرف أبا تمام جدير به أن يستغنى عن أن يصحبه أو يتلذذ
له أو لغيره من الشعراء . على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني
أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره
وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا يمانع
أن يكون البحرى أشعر من أبي تمام فهذا كثير قد أخذ من جميل
واستقى من معانيه فما رأينا أن أحداً قال إن جميلاً أشعر منه بل هو
عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل

(صاحب أبي تمام) إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر
منه فقد سئل عنه وعن أبي تمام فقال إن جيده خير من جيدي
وجيد أبي تمام كثير

(صاحب البحرى) إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحرى
لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف
وشعره شديد الاستواء والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف
الشعر وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط

الخطاطاً قبيحاً وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط ومن لا يسقط
ولا يُسَفَّ (١) أفضل ممن يسقط ويُسَفَّ

(صاحب أبي تمام) إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه
أولاً وإماماً متبوعاً وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة
أبي تمام وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره وهي فضيلة عَرى عن
مثلها البحترى

(صاحب البحترى) ليس الأمر على ما وصفت وليس أبو تمام
صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه بل سلك فيه سبيل
مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط في ذلك وأسرف حتى زال
عن النهج المعروف والسنن المألوف بل إن مسلماً غير مُبتدع له
ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع متفرقة في أشعار
المتقدمين فقصدتها وأكثر في شعره منها ولكنه حرص على أن
يضعها في مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل إنه أول
من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه وأحب أن
يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً
وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً ففسد شعره وذهبت طلاوته

(١) أسف: انحط

ونشف ماؤه فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب
وسبقه إليه وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه
فيه من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه . أما البحترى فانه ما فارق عمود
الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة
والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ
وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً في إجماع الناس على
استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على
علومكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب
الكلام ومناهجه

(صاحب أبي تمام) إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه
لدقة معانيه وقصور فهمه عنه . أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره
وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه
(صاحب البحترى) لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي
وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من
العلم بكلام العرب وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره
حتى قال دعبل إن ثلث شعره محال ^(١) وثلثه مسروق وثلثه صالح
وقال ما جعل الله أباً تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام

المنثور أشبه منه بالشعر وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دُونَ له كبير شيء

(صاحب أبي تمام) إن دعبلاً كان يشناً أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يُقبل قولُ شاعر في شاعر وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس

(صاحب البحتري) لا عيب على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة والعيبُ في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية

(صاحب أبي تمام) إن العلم في شعر أبي تمام أظهر منه في شعر البحتري والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم

(صاحب البحتري) كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً وكان الأصمعي شاعراً عالماً وكان الكسائي كذلك وكان خلف بن حيان الأحمر

أشعر العلماء وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء
غير العلماء والتجويد في الشعر ليست علته العلم والشائع المشهور
أن شعر العلماء دون شعر الشعراء وقد كان أبو تمام يعمل على أن
يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب

أما البحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده ولا كان يعتد فضيلة
ولا يراه علماً بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من
فهم سامعه فلا يأتي بالغريب إلا أن يتفوقه في اللفظة بعد اللفظة في
موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذي
توثرون به أبا تمام لم ينفعه فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق
الغذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد
(صاحب أبي تمام) لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض
شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه وغير غريب
على فكر تتج من المحاسن ماتج وولد من البدائع ما ولد أن يلحقه
الكلال في الأوقات والزلل في الأحيان بل من الواجب لمن أحسن
إحسانه أن يسامح في سهوه ويتجاوز له عن خطأه وما رأينا أحداً
من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط
والعيب وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط
والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه وما

كان أحد من أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجود الفضل
بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجوידهم على تقصيرهم
(صاحب البحرى) أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم
من المتقدمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة أما
أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها
مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارةً قبيحة أو
مخطئاً المعنى بطلب الطباق والتجنيس أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد
حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج

(صاحب أبى تمام) إنكم تنكرون على أبى تمام من الفضل
ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاءً اعترف فيه له بالسبق
وفضله على شعراء عصره

(صاحب البحرى) لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام
صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطلب والنسب
والمكتسب فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه
بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه على أن الميت خاصة
يعطى فى تأيينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف
ما كان يستحقه

(صاحب أبى تمام) كيفما كان الأمر لا يستطيعون أن تدفعوا

مأجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله
وإذا كان جیده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطراحه
كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحترى
واحد منهم

(صاحب البحترى) إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً
لُندرتة ووقوعه في تضاعيف الرديء فيكون له رونق وماء عند
المقابلة بينه وبين ما يليه وجيد البحترى كجيد أبي تمام إلا أنه يقع في
جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه

فتنة القول

«للجاحظ»

قال بعض الربانيين ^(١) من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن
يكره التشادق والتعمق ويغض الإغراق في القول والتكلف
والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم
من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن
ما يسمع أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا
اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم قولاً

(١) الرباني العارف بالله ويطلق علي الخبر

متعشّقا صار في القلب أحلى وللصدر أملاً والمعاني إذا كسيت الألفاظ
الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحوّلت في العيون عن مقادير
صورها وأرّبت على حقائق أقدارها بقدر ما زُينت وعلى حسب
ما زخرفت والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ومدخل خدع
الشيطان خفيّ .

فصاحة جعفر بن يحيى

« لبعض الكتاب المتقدمين »

كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة
والحلاوة والإفهام الذي يغني عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق
يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عنها وما رأيت أحداً
لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنج ولا يترقب لفظاً قد
استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصّى عليه طلبه
ولا أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى

حقيقة البيان

« لبعض الكتاب المتقدمين »

إن المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمختلجة

في صدورهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستوزة خفية
وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة . لا يعرف
الانسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه
والمعان له على أمره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره .
وإنما نحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها
وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجلبها للعقل وتجعل الخفي
منها طاهراً والغائب شاهداً والبعيد قريباً وهي التي تلخص الملتبس
وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد مطلقاً والمجهول معروفاً
والوحشي مألوفاً والغفل^(١) موسوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة
وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون ظهور
المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور
كان أنفع وأنجع . والبيان اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك
الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصولة
كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل لأن مدار
الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام
فبأي شيء بلغت ذلك فلذلك هو البيان

(١) الغفل مالا علامة فيه

فصاحة القرآن

« للباقلاني » (١)

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج
عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للألوف من ترتيب خطابهم
وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد
وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى
أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم إلى أنواع الكلام الموزون
غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعتدل غير المسجع ثم إلى معتدل
موزون غير مسجع ثم إلى ما يرسل إرسالاً فيطلب فيه الإصالة والإفادة
وإفهام المعاني المعارضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن
معتدلاً في وزنه وذلك شبيهة بحملة الكلام الذي لا يُتعمل ولا يتصنع له
والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق فضلاً عن أنه

(١) « الباقلاني »

ت ٤٠٣ هـ

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب كان معروفاً بالجدل وقوة الحجة
ورسوخ القدم في علم الكلام والبراعة والتفوق في الفصاحة والبيان ومن
قرأ كتابه إعجاز القرآن ظن أنه يقرأ أسلوب الأدباء المعربين
لا المتكلمين المعجمين

ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع
والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكمة الكثيرة والتناسب في البلاغة
والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وإنما تنسب إلى
حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة وإلى شاعرهم قصائد محصورة
يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والعمل والتكلف والتجوز
والتعسف وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة
على ما وصفه الله تعالى به فقال «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً
مثنائاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم
إلى ذكر الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»
ذلك إلى ما تراه من أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين
على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها من ذكر قصص
ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد
وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير
مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل
والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه
الأمور فمن الشعراء من يجود في المدح ومنهم من يسبق في التقريظ
دون التأيين ومنهم من يجود في التأيين دون التقريظ ومنهم من يُغرب
في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف

الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابعة إذا رهب وزهير إذا رغب وهم قوم لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبرزهم في مذهب النظم . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بال غاية في البراعة في معنى فاذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف في شعره ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً ومنهم من ينظم القصيد ولكنه يقصر فيه مهما تكلفه أو تعلمه ونجد من الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاً عجيباً ومنهم من هو على الضد من ذلك . وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي ذكرناها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا . وكذلك قد تأملنا ما تتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وهناك شيء آخر هو خير ما يؤتى به للدلالة على بلوغ الفصاحة في القرآن منزلة الإعجاز وهو أن ورود تلك المعاني الغريبة التي يتضمنها في أصل الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين

بهذه الأساليب البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما
يتعذر على العرب مجاراته فيه لأنها معان غريبة غير مطروقة وقد علم
أن تخير الألفاظ للمعان المتداولة المألوفة والآبَاب الدائرة بين الناس
أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة وأسباب مؤسسة
مستحدثة وبراعة اللفظ في المعنى البارِع أعجب من براعته في المعنى
المتداول المتكرر. وللقُرآن مزية أخرى غير ما تقدم وهي أنه من المقرر
المعروف أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تُذكر منه
الكلمة في تضاعيف كلام أو تُقذف ما بين شعر فتأخذه الأسماع
وتتشوف إليه النفوس ويرى وجه رونقه بادياً غامراً ما يقرن به
كالدرّة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة وسط العقد وأنت ترى
الكلمة من القرآن يُتمثل بها في تضاعيف كلام كثير فاذا هي غُرة جميعه
وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه وتخصّصه برونقه وجماله
وانفراده. وبعد فانك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب
مجلوة عليك في منظر بهيج ومعرض رشيق ونظم أنيق غير متعاص على
الأسماع ولا ملتو على الأفهام ولا مستكره في المفظ يمرُّ كما يمر السهم .
ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العُباب جموح
على الطارق المتتاب . كالروح في البدن والنور المسبّط^(١) في الأفق

والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه تنزيل من حكيم حميد

إعجاز القرآن

« للقاضى عياض » (١)

إنَّ كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة ونحصيلها
من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه : أولها حسن تأليفه والتَّام
كله وفصاحته ووجوه إعجازه وبلاغته الحارقة عادة العرب وذلك
أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة
والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم
يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب . ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك
طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة . يأتون منه على البديهة بالعجب
ويدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديهاً فى المقامات والخطب .
ويرتجزون بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ويتوصلون
ويتوصلون ويرفعون ويضعون . فيأتون من ذلك بالسحر الحلال .

(١) « القاضى عياض »

هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى السبتي نسبة إلى مدينة سبته كان
إماماً فى الحديث والفقه وكتبا من أوائل الكتاب وكتابه الشفاء فى السيرة
المحمدية لم يؤلف مثله فى موضوعه من حيث بلاغة عبارته وجمال أسلوبه

ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب .
ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن . وبهيجون الدمن ويجرعون
الجبان . ويبسطون يد الجعد البنان ويصيرون الناقص كاملاً .
ويتركون النديه خاملاً منهم البدوى ذواللفظ الجزل والقول الفصل
والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى .
ذو البلاغة البارعة . والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة والطبع
السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق
الحاشية لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم
قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها
وعلوا صرحاً بلوغ أسبابها فقالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا
فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القل والكثر ، وتساجلوا فى النظم
والنثر فمارعهم إلارسل كريم بكتاب عزيز لا يأتية الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . أحكمت آياته ، وفصلت
كلماته وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول
وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت فى
الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحووت كل البيان مجامعه وبدائعه واعتدل
مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم
أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا . وأشهر فى الخطابة رجالا .

وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً . وأوسع في الغريب واللغة مقالا
بلغتهم التي بها يتحاورون . ومنازعهم التي عنها يناضلون . فما زال
صارخاً بهم في كل حين . ومقرعاً لهم على رؤوس الملاء أجمعين .
أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين

الشعراء المحدثون

قال ابن دريد سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال إن جد أحسن
وإن هزل ظرف وإن وصف بالغ يلقي الكلام على عواهنه لا يبالي
من أين أخذه . قلت فبشار بن برد قال نظار غواص مطيل مجيد
يصف ما لم ير كأنه رآه على أن في شعره خللاً كثيراً . قلت فروان
ابن أبي حفصة قال شاعر راض عن نفسه يستحسن كلها جاء منه
معجب لا يرى أن أحداً يتقدمه كثير الصواب كثير الخطأ ليس
لشعره صنعة . قلت فمسلم بن الوليد قال خليج صاف ينزع من بحر
كدر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى . قلت فأبو العتاهية . قال غناء^(١)
جم واقتدار سهل وشعر كحرز الزجاج وربما أشبهه الياقوت
والزبرجد قلت فعباس بن الأحنف قال يلقي دلوه في الدلاء فيغترف

الصفو أحياناً والحمأة ^(١) أحياناً على أن كدره أكثر من صفوه .
قلت فسلم الخاسر قال مقلّ مداح شعره ديباج وعهن يمّوه الردى .
حتى يشبه الجيد . قلت فأبو الشيص قال جده كله فيه حلاوة وبشاعة
كالسدرّة التي نفّضت ففيها المستعذب والمستبشع . قلت فعلى بن جبلة
قال بحاث عن الكلام الفخم والمعنى الرائع لا ينال مرتبة القدماء
ويجلى عن منزلة النظراء قلت فأبو تمام قال سيل كثير الغشاء غزير الغمار
جم النطاف ^(٢) فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت فعبد
الصمد بن المعذل قال خراج ولاج يعتسف تارة ويهتدى أخرى
قلت فعلى بن الجهم قال كلام رصين ومسلّك وعرقله أغلب على
شعره من طبعه . قلت فبكر بن النطاح قال تشبّه بالأعراب فأفرط
وتجاوز حد المولدين فأسهب فهو الساقط بين القريتين

(١) الحمأة الطين الأسود (٢) النطاف الماء الصافي

نظرات المنفلوطي

«أحمد لطفي بك السيد» (١)

يكتب الكتّابون عندنا وفي البلاد الأخرى فيقع بعضهم على بعض في كيفية استحضار الأفكار وصوغ العبارات وفي الأسلوب الكتابي إلى حد يختلط فيه أمرهم وتفنى به شخصيتهم فلا تسكاد تفرق بين أحدهم وبين الآخر إلا باختلاف الاسم . وهذا الصنف من الكتاب في كل أمة كثير وكتاباتهم أكثر ولكن الزمان نقاد غير متسامح لا يبقى في كفه من تلك الأسفار الكثيرة إلا القليل

ومن الكتاب . من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى في بيئة الكتاب . لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة . بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس في الثوب الذي يناسبها على تفصيل مودة الأذواق

(١) «أحمد لطفي بك السيد»

هو من أعلم الكتاب في هذا العصر بالأخلاق والاجتماع والحكمة ومن أقدرهم على الحجّة التي لا يشوبها كذب ولا تخيل وله في كتابته صفة خاصة به ، منشؤها أنه يصدر فيما يكتب عن رأى نفسه ، وقلبه أظهر الأقلام وأبعدها عن الهجر والعيب ولو أمكن أن يخلو قلم كاتب من كل عيب لخلا قلم لطفي السيد من الأساليب الأفرنجية التي يستعملها أحيانا

الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا
الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل إلا أن كتاباتهم على
قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الأولى التى تدفعها إلى الأخذ
بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح . وهى خير اللغات وأبقاها
من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى . أكاد لأجد
له فى طريقته مثيلاً بين كتابنا فانه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف
المساواة . يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه
الذى يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر : يطرق الموضوعات الصعبة
البعيدة فيقربها من القارئ ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن
كذلك من قبل

أقول من غير محاباة وفى يدى نظرات المنفلوطى إن السيد مصطفى
هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابى الحاضر جمع بين أفكار التمدن
وأسلوب العرب الأصيل فكان كتابه النظرات بذلك إحدى
المعجزات عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق وأنهما
لا يزالان كذلك مابقى البعد بين مطلع الشمس وبين مغربها
أنصح للشبية أن تجعل نظرات السيد المنفلوطى كتاب مطالعتهم
وأنصح للناشئة أن يحفظوا منه ما استطاعوا . فان هذا الكتاب خير
مرب للملكة الإنشاد

الشعر

«لأحد الأدباء المعاصرين»

١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

كتب إلى كاتب يقول عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكتب فقرة
سم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تنظم شطرة . فلم لم تكتب في عهدك
الأول . ولم لم تشعُر في عهدك الثاني . كأنما ظن عافاه الله أنى أكتب
اليوم بقلم غير قلم الأمس أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادئ وهل
الشعر إلا نُثارة ^(١) من الدرّ ينظمها الناظم إن شاء شعراً . وينثرها
الكاتب إن شاء نثراً . أو نعمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع
مرة من أفواه البلابل والحمائم . وأخرى من أوتار العيdan والمزاهر
أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين ^(٢) من عروض
وقافية أو خافيتين ^(٣) من فقر وأسجاع

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر . وما القافية والبحر إلا
ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شؤون وأطواره
ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ولولا أن غريزةً في النفس
أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه وأتربياً

(١) النثارة : ما تنثر من الشيء . (٢) القادمة : مفرد قوادم وهي عشر
ريشات في مقدم جناح الطائر (٣) الخوا في ريشات إذا ضم الطائر
جناحيه اختفت

لعاطفته ما نظم ناظم شعراً . ولا روى عروضى بحراً
 ما كان العربى فى مبدأ عهده ينظم الشعر ولا يعرف ما قوافيه
 وأعاريضه . وما علله وزحافاته . ولكنه سمع أصوات النواكير
 وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحمام فلذ له صوت
 تلك الطبيعة المترنمة ولذ له أن يبكى لبكائها . وينشج لنشيجها .
 وأن يكون صداها الحاكى لرناتها ونغماتها . فاذا هو ينظم الشعر من حيث
 لا يفهم منه إلا أنه ذلك الخيال السارى المتمثل فى قريحته المتردد
 بين شذقيه . ولا من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من صورهِ
 ولون من ألوانهِ

ذلك منتهى نظر العربى إلى الشعر وذلك مادعاه إلى أن يسمى
 النبى الذى بعثه الله إليه شاعراً وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه
 ما قصد فى حياته قصيدة ولا رجزاً رجوزة ولكنه سمع من كتاب
 الله وآياته المفصلات أبلغ الكلام وأفصحهِ وأعلقه بالنفوس وآخذه
 بالألباب وأملكه للعواطف والوجدانات وأجمعه لصنوف التشبيهات
 البديعة والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنيات المستطرفة
 وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق فى أكثر منازعه ومناحيهِ إلا عند
 ذهابهِ مذهب الخيال الشعرى فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى
 الناطق به شاعراً وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون

ما كل موزون شعراً ولا كل ناظم شاعراً فالوزن ملكة تعلق
بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغنى به مقطعاتاً تقطيعاً يوازن تفاعيله
فهو نعمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء تتمثل في قول الملك
الضليل ^(١) (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل) كما يتمثل في قول
الخليل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) ويتراءى في أوتار الحلق
الناطق كما يتراءى في أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان وما النظم بالإضافة إليه
إلا كالحلى في جيد الغانية الحسنة. أو الوشى في ثوب الديباج المعلم.
فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها والديباج لا يزرى به أنه غير
معلم كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون
ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم وها أنت ترى أن لاصلة بينهما
إلا تلك الصلة الاصطلاحية التي لا سبب لها إلا اعتياد الناس أنهم
ينظمون ما يشعرون. وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت
على كثير من الناس أمرهما وهي التي أدخلت النظامين في عداد
الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينهما
إلا القليل من الناقدين المستبصرين. فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين

(١) هو لقب امرئ القيس

القصيد ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً وتصفح الديوان ذا المائة
قصيدة فلا نعر بقصيدة وأصبحنا لانكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر
لأنه لا يوجد في الناس شخص واحد يعجزه تصور تلك النعمة
العروضية وتصويرها حتى العامة والأمين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر واقتنوا في ذلك اقتنائاً
بعد به عن مكانه ، وعندى أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق)
لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير وميزان جودته ما يترك في النفس
من الأثر . وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة
خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون
قلبه وتصوير ما في نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلبسه
بينانه فيصبح شريكه في حسه ووجدانه يبكي لبكائه ويضحك
لضحكه ويغضب لغضبه ويضطرب لطره ويطير معه في ذلك الفضاء
الواسع من الخيال فيرى الطبيعة بأرضها وسماها وشموسها وأقمارها
ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها^(١) وناطقها
وصامتها من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً . ولا يلاقى في سبيله نصباً
فان سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم

(١) يقال بغم الغزال إذا صوت بأرخم صوته فهو باغم

مزلنا دوحه فحنا علينا حنق المرضعات على الفطيم
 وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألدّ من المدامة للنسيم
 يصدّ الشمس أنى واجهتنا فيحبها ويأذن للنسيم
 يروع حصاه حالية^(١) العذارى فتلس جانب العقد النظيم
 خيل له أنه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره. خطر أن
 النسيم بين ظلاله وأشجاره. وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات
 وقد راعهنّ منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء فتوهّجن
 وفزعن إلى جوانب عقودهنّ يلمسها بأطراف بنانهنّ يحسبن أن قد
 وهت فانتشرت جواهرها في ذلك الروض الأريض

وإن سمع قول الآخر :

ودار ندأى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
 حبست بها صبحي وجمعت شملهم وإنى على أمثال تلك لحابس
 أقننا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
 قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدرىها^(٢) بالقسي الفوارس
 فالراح ما زرت عليه جيوبها وللماء مادات عليه القلانس

(١) الحالية : لابسة الخلى (٢) ادرى الصيد : ختله

تمثل له كأنه مرَّ في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها
أصوات قوم يلهون ويقصفون^(١) ويقرعون الكؤوس بأمثالها
فاقترب منها وأطلَّ من خصاص^(٢) بابها فرأى أولئك القوم مجتمعين
حول دَنٍّ من الخمر قد تكامل سنه وشيَّب الدهرُ فوديه^(٣) فقصدوه
فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب متقوشة نقوشاً فارسية قد
استقرت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في باطنها صور فرسانه
متسكبي قسيهم كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم . ورآهم يملئون
الكؤوس إلى ما يوازي أعناق تلك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى
ما يغطي رؤوسهم . فتسلل من مكانه مغتبطاً بمجمعهم وبما هيء لهم من
الهناء والنعمة فيه ثم مرَّ بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها
لا تُسمع بها نغمة ولا نائمة^(٤) فدخلها فلم ير فيها إلا أعواد ريحان
قد يابس أكثرها مبعثرة في جوانبها وخطوطاً كانت رسمتها زقاق الخمر
فوق تربتها في غدوها ورواحها بين أولئك الندماء . فانصرف حزينا
مكتئباً يسمع صفير الريح الضارب في جوانبها فيرد قول القائل :
رُبَّ ركب قد أباخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

(١) قصف: أقام في أكل وشرب ولهو (٢) الخصاص: كل خلل وخرق
في باب أو غيره (٣) الفودان: ناحيتا الرأس (٤) النائمة: النعمة والصوت

وإن سمع قول الآخر .

ويوم كتنور الإمام سجرته^(١) وأوقدن فيه الجزل حتى أضرمها
رميت بنفسى فى أجيج سموه وبالعيس حتى بض منخرها دما
شعر كأن هيب تلك الهاجرة يهب فى وجهه فيشيع بوجهه عنه
فراراً من لفحاته ويكاد يبكى رحمةً لذلك الشبح المصهور الذى
ملكته عليه تلك التثوفة الحمراء سبيله وحالت بينه وبين نفسه فلا هو
بصابر إن رام صبراً ولا بناج إن أراد نجا

وإن سمع قول الآخر :

وارحمنا للغريب فى البلد النازح ماذا بنفسه صنعنا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا
هملت عيناه جداً على ذلك الغريب الحائر وتمنى أن لورآه فى بعض
مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته . وخفض لوعته . ثم أخذيده
فأنزله من نفسه منزلاً كريماً وأبدله أهلاً بأهل وجيراناً بحيران
وإن سمع قول الآخر .

وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا الحى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

(١) سجر الرجل التنور: ملأه وقوداً

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
لهم جُلّ مالى إن تتابع لى غنى وإن قلّ مالى لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً وما شيمة لى غيرها تشبه العبد
أكبر تلك المكرومة العظيمة وأجلّها ونظر إليها فى علياء سمائها كما
ينظر الفلكى إلى كوكبه وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى
جوانب نفسه فأضاءها

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ فلطالما كان للشعر
السلطان الأكبر على النفوس العظيمة فقد نكب الرشيد البرامكة
عند مads له أعداؤهم ذلك المغنى الذى غناه هذا الصوت

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا بما تجدد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
وأمر السفاح بقتل وجوه بنى أمية بعد ما قربهم وأدناهم عند
مادخل عليه سديف مولاه وأغراه بهم فى قوله :

لا تُقِلنَّ عبد شمس عشارا واقطعن كل رقلة^(١) وغراس

(١) الرقلة : النخلة الطويلة التى تفوت اليد

أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم و بهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءنى وساء سوائى قربهم من نمارق وكراسي
بل عطف عمر بن الخطاب على الخطيئة وأطلقه من سجنه حين
سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ حمر الحواصل لأماء ولاشجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه
[فى قتله أخاها النضر بن الحرث على رحمه منه واتصال نسبه به
أحمد يا خير صنو كريمة فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفقى وهو المغيظ المحقق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى آيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق
فبكى وقال وهو من لاطنة ^(١) فى عدله ولا رية فى حكمه لو سمعتها
قبل اليوم ما قتلتها

لامؤثر فى نفس الإنسان غير الشعر . وما خضع الإنسان لشيء

في جميع أدوار حياته إلا للشعر . وللشعر الفضل الأول في نبوغ
الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال . ولقد أحب الإنسان
الشعر ناطقاً وصامتاً . أما الشعر الناطق فقد عرفته . وأما الشعر
الصامت ، فهذه التماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال
بعد مماتهم شعر . وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر
القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق وعاطفة
الحماسة في نفس الجندي شعر . وهدير الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة
الجبارين . وظلام الليل شعر لأنه يطلق دموع الباكين . وحفيف
أوراق الأشجار شعر لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق . وبكاء
الحمام شعر لأنه يمثل فجعة البين ولوعة الفراق

تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة وفم الطبيعة
أخرى هي التي زخرت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم
الأيض من السعادة والهناء حتى أحببناها وولعنا بها وحرصنا عليها
وأعدنا العدد للبقاء فيها والسكون اليها فكتبنا ودونا وألفنا واخترنا
وتعلمنا فعلنا . وبنينا فشيدينا وغرسنا فحسينا . وعملنا فربحنا . واجتهدنا
فأثرنا . وأملنا فسعيننا . وسعيننا فبلغنا

فكان الشعر سر هذه الحياة وعلة هذا الوجود لا تطير إلينا
الحقائق إلا على جناحه . ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره . فلم نجد

الشعراء كل التجيد . ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شمس
الحكمة ، وأفلاك كواكب العلم والفضل ، وهم الينابيع الصافية التي
يتفرق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفتده والقلوب فيملؤها سعادة وهناء

كلمة في التعريب^(١)

« لحافظ أفندي إبراهيم »

هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد
وضعه صاحبه وهو بئس ، وعربه معربه وهو بئس ، فجاء الأصل
والتعريب كالحسناء وخيالها في المرأة ، وضعه نابغة شعراء الغرب
وهو في منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه
ولولا أنني أشرب بالكأس التي كان يشرب بها ذلك الرجل
العظيم لما وصل مبلغ علي إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعي في قطرة من
سيول قلبه . ولو أن لي قلباً من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف
إبراهيم وموسى وقد تلقنتي البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت
إلى لباب مصاصها^(٢) وأخذت منها حاجتي لما حدثتني النفس
بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء

(١) هذه الكلمة هي مقدمة كتاب البؤساء

(٢) مصاص الشيء : خالسه أو سره

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم في الميقات . وأستوزع الله بيان
تلك المعجزات . حتى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوره واهتدى
الخاطر إلى مكان حكمه دعوتُ إلى أم اللغات وعملت على التوفيق
بين هذه الغادة الشرقية . وتلك الفتاة الغربية . وعمدت إلى مدصلة
النسب بين الغادتين اللتين انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الإفرنج
فإذا شَمَسَتْ (١) إحداهما وازور جانبها أغريت بها سلطان العقل فلا
يزال بها يروض الراكب الصعبة حتى تسكن إلى أختها
وترتاح إلى جوارها . ولم تزل تلك حالي أدخل بينهما دخول المروء
بين الجفن والجفن وأمشى بينهما مشية الحكيم في الصلح بين القوم
والقوم . حتى ائتلف الذوقان . وامتزج الروحان . وضمت شمسيهما
طفاوة (٢) واحتوت بديهما هالة وخلعت الأولى على الثانية جلالها
وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها . وأصبحت تلك المباني الإفرنجية
بعد أن صقلها اللسان المبين وجندرها الذوق الشرقي وهي تسكن
في هذه المعاني العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم
وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والارتفاع بمثل ذلك الفكر
الذي كنتُ بينا أراه يسبح الأجرام في أفلاكها إذا هو يدارج
(١) شمس : امتنع وأبى (٢) الطفاوة : الدارة حول الشمس أو القمر

النمال في مداها وبيننا ألحهُ بين ذروة العلم وشرقة القصر إذا هو بين
قاع البحر . وعقيق النهر . فكم أفلتَ من هجرة . واختبأ في خيلة .
فمن تلهب جمرة القيظ في صميم القائلة إلى تراوح النجم في الروضة ومن
التردد بين زفير العاشق وحرقة إلى التمشي بين نفس الحبيب وريقته
ولا يزال الكتاب في كل أمة يلتمسون أن يُعقل عنهم ما ألهموا
أن يدخلوه في مؤلفاتهم من الحكم والأمثال فيصدحون عنها الشرور
بأفلامهم كما يُصدق^(١) المطر ويستهبطون الحكم من سمائها فيسكنونها
بين سطورهم وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيرونه من
الأقاصيص التي تدعو إلى العظة وتصفح^(٢) النفوس عن ركوب
سبل الغواية .

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أعانى تعريبه اليوم فلقد
قصّ علينا صاحبه أحسن القصص فكان مثله فيه كما قال عن نفسه مثل
المنجم الذهبي لا تصل الأيدي إلى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا

(١) أخرجها مثلاً وكان من وساوس العرب إذا خشوا سقوط المطر
أن يعمد أحدهم إلى خيمته أو عطنه فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها
رجاء أن يخطئ المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت
هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه في النبوة
(٢) صفحه عن حاجته : رده

وقد خار الله لي (١) أن أعزبه فاستعنته فأعانتني واستهديته فهداني
وسلخت اثني عشر هلالاً في تعريب تلك الصفحات التي ترونها اليوم
وحاولت أن أصل بها تلك الرحم التي قطعها يد الترجمة التجارية
بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين
فوفوها قسطها من الإلتقان وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة
ويرضاه أبنائها

أرايتك أيها الناظر في كتاب كليلة ودمنة؟ أكان يقوم بنفسك
وأنت تذوق حلول تركيبه وتستمرئ لذة أسلوبه أن عبد الله بن المقفع
قد عزبه عن الفارسية ولم يصل خبر ذلك إليك؟ فسقياً لتلك
الأقلام التي عزبت فأعربت . وسطرت فأعجبت . وواهاً لهذه اللغة
التي أصبحت بين أعجمي ينادى بوأدها . وعربي يعمل على كيدها
ومن نظر في بطون تلك الكتب التي تترجم اليوم رأى هذه
الغادة الشرقية وهي على فراش موتها تندب خدراً قد ابتذلتها الأقلام
وستراً قد هتكته الأوهام . وقد فتحوا لها في بطون هذه الكتب
قبوراً وخاطوا لها من تلك الصحف أكتافاً وهيأوا من هذه الأقلام
أعواداً . وما هو إلا أن يثنى ذلك الغربي بدعوته حتى يسرع إلى
جنازتها أهلها وذوو قرابتها

(١) يقال خار الله له في الأمر: إذا جعل له فيه خيراً

اللهم أنت تعلم أننا نعلم مريض الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر . اللهم إن هذا خذلان منك فأدر كنا برحمتك وهي لنا من أمرنا رشداً

أيسكون بين أبناء اللسان العربي مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام وأنا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات . ومخترع من المخترعات . إلا ما وقع تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء . وما سمت إليه حضارتهم في عهد الدولة الأندلسية . أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء . وأى غيث سقاه . وجو حواه . حتى أدخل في لغته من الكلمات ما يخطئه العبد ووقف في وجوه المعارضين فيها وقففة البسفور في وجوه الطامعين في هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليست رجالنا بمقاديرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم أيدعي البعير وهو ذلك المركب الخشن بهذه الأسماء التي تضيق عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفاً في هذه اللغة فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه

الأيضان أبردًا عظامي الماء والفت بلا إدام^(١)
وهو فوق راحلة ظالع^(٢) على قتب يكاد يدمي عجان^(٣) تحت
شمس تكاد تأكل ظلها في مفازة
تمشي الرياح بها حيرى موهنة حسرى تلوذ بأكناف الجلاميد
إذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول
وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز وأردتنا على أن نصف ونحن
نستطيع من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان وتنبؤاً أريكة
«الأوتوميل» تحت ذلك الظل الظليل . في مخارف^(٤) ضفاف النيل
على فراش وثير . ومتكأ من حرير . بين نسيم عليل . وماء سلسيل
ذلك المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول فوققنا أمامك
موقف الحائر لانعرف له اسماً يدل على مسماه ولا مرادفاً في اللغة
يؤدى معناه

فخذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة وانظروا كم أدخل
فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية
وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم إليه . وهذا

(١) تقول العرب الأيضان عن الماء والفت والأحمران عن اللحم
والخنز (٢) ظلع البعير غمز في مشيته (٣) عجان الرجل ما تحته
(٤) جمع مخرفة وهي المتنزه

باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصيبهما
ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين

الشعراء المعاصرون

« لخليل مطران »

إسماعيل باشا صبرى

أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها أو
خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراته نفسه على ما تدعوه إليه فالغالب
في أمره أنه يقول الشعر متمشياً وربما قاله بحضرة صديق وهو
مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أن ^أبمثل ما تنطق لفظة ايه مستطيلة
ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة وقلبا
يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر

شديد النقد لشعره كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام
على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه
وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل
بيته إطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ضاربين من أشطرهما
بأجنحة ملتمعة شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع

تُغمهما من عالم النسيان
ذلك هو الشعر للشعر

أحمد شوقي بك

ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم وينظم في المركبة
وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي وحين يشاء وحيث يشاء .
ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه
النغم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظره وقد برقا وتواترت فيهما
حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه
إمراراً خفيفاً هنيئة بعد هنيئة

فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر
الذهن صافيه جميل البادرة كعادته في الحديث

ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه
لم ينقطع عنه مستظهِراً ما ثم منه حافظاً لبقية المعنى الذي يضمه
يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها
فكتبها في جلسة واحدة

يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبرهن^(١)

لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو في مبنى

فأما المعنى فيجيبه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب
عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين
الآداب في لغات الإفرنج والأعراب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ
وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات عليّة وتنبّهات
فنية استفادها من مطالعته في صنوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته
ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول . ترى
فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن
مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار
وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي
ذلك شعر العبقرية والتفوق

حافظ إبراهيم

يقول الشعر في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه ومن عاداته
دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طالباً لتلك الخلوة ولا يختلط عليه
الفكر خلال الضجيج المحيط به

يتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج مثال
جميل من حجره

يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات

يطرق الموضوع في الغالب من جوهره وربما نظم أكثر الآيات
قبل المطلع شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما بين يديه آمناً
إن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك عالماً أن الكلام لابد أن
يأتيه في أي مقام طيعاً ولو بعد حين

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها
ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها

إذا صب البيت في قالب من العروض أعاده نغماً على سمعه
مستشيراً بذلك ذوقه عن طريق أذنه وطالما صدقته الأذن بنصيحتها
أما تغنيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي وطريقته أن
ينطق بالكلمات ملحنة تلحيناً ساذجاً من إطالة في الحروف المعتلة
ورجفة في القرار كرة أربعة أنفاس وتقتضب

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى وفي أقصى ضميره يؤثر
البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى فإذا فاتته الابتكار حيناً في التصور
لم يفته الابتكار في التصوير

أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء
كبير الآمال عاثر الجد تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس

أو مسحة من الشكوى وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار
الكامنة في غير متقد

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر
لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد
أما شعره فشعر البيان وإن من البيان لسحراً
محمود باشا سامى البارودى

أدركته وقد عاد من منفاه . وكان أول معرفتى به أن زرته
مصاحبة لصديقه ومريده الشاعر الناثر محمد بك إبراهيم هلال
دخلنا عليه وهو فى صدر مجلسه خياناً بذلك اللطف الذى كان
لا يفارقه الوقار ولا تثبت معه الكلفة وكان لى معه بعد ذلك ودوعهد
واتفق أن جئته ذات يوم وما بيننا ثالث فطارحنا الشعر
وتباحثنا فيه ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما فاستوى يفكر
استوى ساكناً ساجياً مسنداً ظهره إلى الحائط . وفكر غير
منقبض الحياء ولا معنت الملامح مهللة سماحة وجهه اللامع بأنوار
الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة وقم الناظرتين السوداوين
اللتين تحجبان عينيه

مرت به وبى دقيقة وهو متمكن فى تأمله وأنا مسترسل مع خاطر
أخطرتة فى قلبى رؤية الرجل على هذه الحال . فخيل لى أننى لى

تمثال من تلك التماثيل التي أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من
حكماهم وتبدلت في ذهني الناظر تان السوداوان بالظلمين الذين يحيطان
بالعيون المطبقة في تلك التماثيل

وعاد إلى وهمي استطرأ قوّة ما أبدعوه في تلك الانصاب حتى
أعاروا باتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية
وبينما أنا مستغرق الحواس بتلك الذكري إذ تحرك الرجل تحركاً
من يعالج معنى مستصعباً فتنبهت تنبه دهشة كأنى بالتمثال وقد تحرك
وفي تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل وذلك رسمه
وتلك بشرته البيضاء ليس بعربي التبعة وقضيت عجباً لآية البيان التي
تنتفي عندها فروق الأصول والفروع والامكنة والأزمان
أما شعره فهو بحملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار
قليل وإحساس فياض

اختار له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على
وحي نفسه - ونفسه جارية النعمة وعاشقة الإيقاع - فافتن حتى
أنسى الفن وجود حتى أذهل عن المعنى

فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع لا يبتئس حين يلتبس عليه
فهم الألفاظ إذا استمر النغم على نظامه وإتقانه بل يستمر في طربه

ويترقى فيه إلى أن يخلق لنفسه شجونا حيث تفوته شجون
الأقوال المنشدة .

ذلك كان مذهبه في الشعر وتلك غايته منه . ولا تنس له فضلا
جديراً بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة بمعنى أنه
أول من ردّ الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين . وما أجز قريضه
لقريض جيله . فإنك لتجد الواحد من قصائده ذاهبة صُعداً إلى عهد
أرقى أزمنة العرب فهي كالجبال الشاخنة وحولها القصائد الأخر
كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختبار ولا نسق ولا هندام
الخلاصة أن المرحوم البارودي كان في الطبقة الأولى بين شعراء
العرب وكان قلبه كلفاً بالنعمة وذهنه منصرفاً إلى الصناعة كما يدل
على ذلك منظومه وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوقين . فانه
لم ينتق منها إلا كل ما حسن لفظاً ومعنى أو حسن لفظاً وأهمل ما حسن
بمعناه دون مبناه

فشعره إنما هو شعر الصناعة والإيقاع .

الشيخ إبراهيم اليازجي

هو أستاذي بعد المرحوم أخيه الشيخ خليل قرأت عليه أخريات
الصحف في كتب البيان المتداولة يومئذ في المدرسة البطريركية
بيروت وذلك أن أخاه كان قد أصيب بالعلة التي مات بها فخل هو

محلّه إلى نهاية تلك السنة التي كانت آخر عهدي بطلب العلم في المدرسة
راعني الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة
خبرته بالناس فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلاً ولا أبالغ
بقولي إنه إذا كان الإنسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب فقد
كان الشيخ من أقل الناس عيوباً . بل أقول ولا أبالى عاقبة التصريح على
سمعته إن كل ما تمنيت على الله أن يزيد في مناقبه ومحامده هو خلة
العفو . فلقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته . ينتقم مدافعاً لأبداً
وإذا ضرب ضرب بتؤدة وتبصر ناظراً إلى المقاتل وقلماً تصدى
لخصم إلا تركه صريعاً أو جريحاً جرحاً مشفياً^(١)

على أنه لم ينبر مرة لأحد إلا عن عدل وحق .
كان للشيخ مذهب عام في شعره ونثره وسائر ما يتولاه من
الأعمال وهو مذهب الإتيقان .

لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه
وتعرفه بطابعه

ولهذا لم ينظم مرتجلاً . ولم يكتب إلا محتفلاً^(٢) .
زرتة أحياناً وهو يصنع آباء الحروف المطبعية المتداولة الآن

(١) يقال أشفى المريض على الموت إذا قارب (٢) احتفل بالأمر
أحسن القيام به .

في مصر والشام وكان ينحتها من الفولاذ
وزرته أيا ما وهو يضرب العود ويضع للأنغام العربية علائم
خاصة بها كالعلائم التي تقرأ بها الأنغام الإفرنجية .
وزرته مراراً وهو قد فكك قطع ساعته بعضها من بعض ليصلحها وزرته
آونة يعالج الرسم الشمسي وآونة أخرى يرسم بالقلم الفحمي صديقاً له .
وزرته في الأكثر وهو ينظم أو ينثر واقفاً تجاه منضدة - كذلك
كان شأنه - والصحيفة أمامه على درج مائل
ففي كل هذه الأحوال كنت أجده على مثال واحد من شدة
التفكير والتدبير وبطء الحركة وجمود المحجرين مع غرابة السطوع
في إنسانيهما حتى لتكاد تحس بانبعاث الأشعة منهما متجمعة .
كان أثناء نظمه لا يتقلقل من مكانه إلا لمراجعة كتاب وتحقيق
اللفظة والتحقيق خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه .
إذا نظم البيت خطه ذلك الخط الجميل المصوغ صياغة الجمان
الدقيق . وقد يقلب الصحيفة في يده كأنه يريد أن يرى في سياق
البيت واختيار مفرداته مثلها يراه من الجمال في رسم حروفه وهكذا
إلى أن يتم القصيدة .

فإذا أتمها واطلعت عليها رأيت فيها من المتانة ووضع الكلم
في مواضعها وفصاحة الأسلوب وسلامة التركيب والجزالة أو الرقة

كلُّ في المكانة اللائقة لها وتجافى الضرورات وتوخي المستحسن
من المألوفات ما لا تجد مثله في قصائد غيره ووجدت على الجملة
وفي التفصيل لمعان الصقل .

وأكثر مبتكره لفظي يفاجئك بالمفردة التمثيلية أو بالعبارة
التصويرية فيريك أبعد ما يرمى إليه فكرك من قصده ويعجبك ويهرك
على أنه أقل من الشعر لأن إباء نفسه حمله مع الأيام على التيار
الذي دفعته فيه ابتغاءً لرزقه وما كان أعيفه لمال لا يصيبه جزاء
وفاقاً لحقه

وأصلح تسمية عامة لشعره فيما أراه هي تسميته بشعر الإتيقان

السيد توفيق البكري

شغفٌ كلف بالغريب من ألفاظ اللغة . أذكر أنه بعث في صباه
إلى أحد كبراء الشام بكتاب مجاملة فخار في حل رموزه وجاءني
وأنا يومئذ في المدرسة يستعين على فهم ذلك الكتاب فاستعنا
كلانا بالمعجم

وما زالت هذه حاله إلى الآن سواء في نثره وفي شعره . على أن
في ذلك عجباً لأن الشيخ ممن يشاورون ولكن يغلب على الظن أن
ثقاته الذين يرجع إلى رأيهم من مثل العلامة الكبير الشنقيطي قديماً
وسواه حديثاً إنما هم جميعاً من المشايخ الذين يمر بهم العصر بمافيهِ

من معجزات الماء والنار والكهرباء والنور وبما يفتن العقول ويأخذ
بالألباب من كل جميل النظام شائق الهندام بديع التجزؤ والالتئام
كما تمر بالبدوى المقيم في الصحراء خيالات الجن وطُمطانياتهم في
أضغاث الأحلام

السيد مقل يحول الحول أو الحولان فيقصد قصيدة ومن لطائفه
أنه رأى يوماً عيون مى في باريس ومى على ما هو معلوم اسم
أعرابية بنت أعرابية إلى قحطان من الأسماء التي كان يذكرها شعراء
العرب حقيقة أو عارية

أما نظمه فمتين وله فيه نظرات إلى زمانه لكنها أشبه شيء
ينظرات موجهة من عهد عهيد^(١) إلى عهد جديد
ليس له فكر عام ثابت يتجه إليه ولو التفاتاً في أكثر ما ينظمه
كما يلتفت حافظ إلى اجتماعياته وشوقي إلى خلقياته فهو يقول إجابة
الدعوات الطوارئ ويلبس لكل حالة لبوسها

على أننا إنما أشرنا إلى انتفاء الجامعة التي تجمع ولو بصلة ضعيفة
بين أقسام شعره لأسباب منها أن السيد شاعر سباه بالشاعرية عن
حق وكان في وسعه أن يحل في الرتبة الأولى من شعراء زمانه لو

أراد أن يكون من زمانه ولكنه انتهى إلى عصر آخر فلم يبلغ ولن
يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاءاً
وفطاماً وعادة يقظة ومنام وعشرة ومعاش . ومنها أن السيد طالع
شعر الإفرنج وعلم منه المهمة العليا التي ينتدب لها الشاعر لا بين أمته
منفردة بل بين الأمم جمعاء أحياناً . ومنها أن سماحته أدري بأن
الشعر في بلد محتاج إلى الترية والتأديب كمصر وإذا لم يكن إلا
طوائف أسطر ترسم مقسومة إلى أشطر ففضل الشاعر رب المقاصد
والمعاني على الوزان الناظم مُقطَّع عروض الكلام ليس بالكبير
وهو إذن بما يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير

ليساحنا السيد فيما نذكره له فما هو يعلم الله قصد إحلال له في
غير محله بل توسل إليه - وفي طاقته أن يجيب - بالرقى ولو شق
الصعود إلى الأوج الذي مهد له سبيله من زان فطرته بذلك الذكاء
الباهر . والفكر الحاضر . ويسر له الاطلاع على كثير . وأعفاه
من المعاذير .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع في معناه مقالا لقائل
ولا مجالا لجائل . فلو جرى في كثيره قليله لأصبح قطباً من أقطاب
الزمان . في الجمع بين البلاغة والبيان

اللغة من حيث بلده تشيخ ، تنقل اللغة بحضرة الله
 لقد نقلت اللغة العربية من قديمها إلى لغتنا التي
 بدورها عند سورها - ٧٩ - في اللغة العربية والإعجاز

أما وطريقته العامة ما وصفناه فالكلمة التي تغلب في وصف شعره.
 أنه في القرن الرابع عشر المسمى شعر البعثة الجاهلية

اللغة والعصر
 أي البارز إسماء اللغة العربية
 باعتبارها لغة قومية

« للشيخ إبراهيم اليازجي (١) »

لم يبق في أرباب الأقلام ومنتحل صناعة الإنشاء من هذه الأمة
 من لم يشعر بما صارت إليه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة
 أهلها والعقم بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب
 الكتاب والمعزين وأصبحت الكتابة في كثير من الأغراض
 ضرباً من شاق التكليف وباباً من أبواب العنت . واللغة لا تزداد
 إلا ضيقاً بآتساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن في
 المخترعات والمستحدثات إلى أن كانت تُنبذ في زوايا الإهمال .
 وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومست الضرورة إلى

(١) « الشيخ إبراهيم اليازجي (١) »

هو أكبر عالم لغوي نبغ في العصر الحاضر واتفق له مالا يتيسر إلا
 لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء فهو غفر سوريا خاصة
 والعرب عامة ولو أن الله أبقاه للغة العربية لنالت فوق مانالت على يده
 خيراً كثيراً

تدارك ما طرأ عليها من الثلم قبل تمام العفاء . وقبل أن ينادى عليها
مؤذنُ العصر سبحان من تفرد بالبقاء . ويختم على معجمانها بقصائد
التأبين والثناء

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر الالسنه مَادَّة
وأوسعها تعبيراً وأبعدها للأغراض مُتَنَوِّلاً وأطوعها للبعاني
تصويراً قد أفضت اليوم إلى حال لورام الكاتب فيها أن يصف حجرة
منامه لم يكديجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة فضلاً عما وراء
ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء . ومنازل المترفين
والأغنياء . وشوارع المدن الغناء . وماثم من آنية وأثاث وملبوس
ومفروش وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة مما لا يجدر
لشيء منه اسماً في هذه اللغة ولا يكون حظُّ العربي من وصفه إلا
العَمَى والحَصْر وطى لسانه على معان في قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق
ولا يجدر سيلاً إلى تمثيلها باللفظ كأن المقاطع التي يعبر بها عن هذه
المشخصات لم يُخْلَق لها موضعٌ بين فكَّيه . وليست مما يجري بين لَهَاتِهِ
وشفتيه فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميزها ولا يستطيع أن يعبر
عنها إلا بالإشارة ولا يصفها إلا بالإيماء

ويا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية
أو الصناعية ورأى ماثمة من المسميات العضوية وغير العضوية من

أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعين ما هناك
من الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات وما تنألف منه
من القطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة
وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات

ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات
العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيمائية والفنون العقلية
واليدوية وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي
لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المخصوص

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك له به لسان ولا يعهد له
بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ولا يُغنيه في هذا
الموقف ما عنده من ثمانين اسم للعسل ومئتي اسماً للخمر وخمسمائة
لأسد وألف لفظة للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلاف للداهية وما
يفوت الحصر شيء آخر حرص مؤلف القاموس على استقصاء
ألفاظه حتى لم يكن يذكر مادة إلا وفيها شيء يشير إليه ويدل عليه
على أن اللغة مرآة أحوال الأمة وصورة تمدنها ورسم مجتمعتها
وتمثال أخلاقها وملكاتهما وسجل ما لها من علوم وصنائع وآداب
وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب وما يمتثل
في خواطرها أو يقع تحت حسرها من المعاني . ومعلوم أن العرب
(٦ - مخنارات)

بأنه القدر
التي هي عليها

التي هي عليها
التي هي عليها

التي هي عليها

واضعى هذه اللغة كانوا قوماً أهل بادية بيوتهم الشعر والأديم
ومفرشهم البارى والبلاس^(١) ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم
الرحى والقدر وآنيتهم القعب^{الزبادى} والجفنة إلى ما شاكل ذلك مما
لا يكادون يعدونه فى حل ولا ترحال فأين هم وما نحن فيه لهذا
العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار فى الترف واليسار
وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق وأنواع الأثاث والزخارف
وما نحن فيه من التفنن فى أحوال المجتمع والمعاش فضلاً عما بلغ
إليه أهل هذا العصر من التبسط فى مناحى العلم والصناعة مما كان
أولئك بمعزل عن جميعه إلا ما حدث بعد ذلك فى عهد استفحال
الإسلام مما ذهب عنا أكثره وما كان فيه لو بلغ إلينا إلا غناء قليل
ومهما يكن من حال أولئك القوم وضيق مضطرب الحضارة
عندهم وما نجد فى ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن
فلا يترهمن متوهم أن ذلك وارد على اللغة من هرم أدر كها فقعد
بها عن مجارة الأحوال العصرية وأناخ بها فى ساقه الألسنة الحالية
فإن معنى الهرم فى اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معان قد خلت
ألفاظها عنها ثم تضيق أوضاعها عن إحداث ألفاظ تؤدى بها تلك
المعاني فيطرا على اللغة النقص حيناً بعد حين إلى أن تعجز عن أداء

(١) البلاس البساط من شعر

أغراض أهلها ولا تبقى صالحة للاستعمال وحينئذ فلا يبقى إلا أن
يُلْقَى حبلها على غاربها أو يستعان بغيرها على سد ما عرض فيها من
الخلل بما يغير من ديباجتها وينسكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل
هيئاتها على الزمن وتصير على الجملة لغة أخرى وليس بمنكر أن
ما وصفناه من هذه الحال يشبه في بادئ الرأي ما نشاهده من حال
لغتنا اليوم وما لم نزل ننعاه عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفاء
بمطالبنا العصرية إلا أن ذلك إذا استقرت أوجهه وأسبابه وسبرت
غور اللغة في نفسها وقست مبلغ استعدادها علمت أنه ليس منها في
شيء وأيقنت أنها لا تزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها وأن فيها
بقية صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادة ولكن
ما أدركها من ذلك وارد من قبل الأمة وتخلفها في حلبة الحضارة
والمدينة إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم وإنما هي عبارة
عما يتداولونه بينهم لا تعدوا ألسنتهم ما في خواطرهم ولا تمثل ألفاظهم
إلا صور ما في أذهانهم . وبديهي أن اللغة لم توضع دفعة واحدة
وإنما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء على قدر ما تدعو إليه حاجة
المتكلمين بها وقد اختصت هذه اللغة بمزية عز أن توجد في غيرها
وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذة بالاشتقاق اللفظي أو المعنوي بحيث
صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه لغة

اللغة
دعوه
عن

على كونها من أقل اللغات أو ضاعاً إلا أنها من أكثرهن صيغاً وأبنية
وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب فضلاً عما فيها من تشعب
طرق المجاز على ما سنعود إلى بيانه بالتفصيل

العربية أقل اللغات
أدقها وأكثرها
صيغاً وأبنية
كأنها من اللغات
التي تشعب طرق

واعتبر ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن
الجاهلية وفي صدر الإسلام ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء
من بني العباس بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح وتنبه الأمة
لطلب العلوم وتبسطها في الفنون والحضارة بحيث خرجوا بها من
حال الخشونة البدوية إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك
لم يكادوا يدخلون فيها لفظاً أعجمياً ولا اضطروا فيها إلى وضع
جديد ولكنها خدمتهم بنفس أو ضاعها التي وضعتها العرب فاشتقوا
منها ما لا عهد به للعرب على وجهه الذي نقلوه إليه ولم تتسكلم به
أصلاً حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان وأدخلوا كثيراً
من مصطلحات الأمم التي احتاجوها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك
كله ما استنبطوه بأنفسهم واللغة مشايمة لهم في كل ما أخذوا
فيه لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا من شكائهم عجزاً
ولا تقصيراً إلى أن أدركهم من تبدل الأطوار وغارات الأقدار
ما وقف بهم عند ذلك الحد فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل إلينا
من كتبهم وتوالي الاجتياح بعد ذلك على الأمة وتتابعت دواعي

الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج الرياح
فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود
منها اليوم لا يقوم بخدمة أمة متمدنة ولا هو أهل لأن يُبلَّغَ به
مامزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمة هرم فإنما هو في الأمة لا في
اللغة لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحقٍ بها ولا
ملحقٍ بها وهناً ولا عجزاً وإنما هو عجز في ألسنة الأمة ومدار كهها
وتأخر في أحوالها واستعدادها ولو صادفت من أهلها البقاء على
عهد أسلافهم من السعي في سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم
تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم إلى
مجاراة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك لم يزد فيها خرف
بل لم يكده يحفظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية على
تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على
أهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص
ال عمران وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من أهل
المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوي والآكار وما دامت
المعاني التي يعبر عنها باللغة معدومة فلا سبيل إلى بقاء الألفاظ الدالة
عليها إذ اللفظ إنما يتخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس فلا يكون

الجمهورية
التي هي
التي هي

الجمهورية
التي هي
التي هي

الجمهورية
التي هي
التي هي

إلا على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون
بعضه بالإحراق كما تم في مكتبة قرطبة وكان هذا في مقابلة ما وقع من
مثله بالاسكندرية وفارس . . . وبعضه بالاجتياح والنهب فلابق في
مكانه فينتفع به المتأخر ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته وبقى
الشيء اليسير نجده اليوم في مكاتب الأعاجم وأكثره مما اشترى
من أيدينا بالذهب . . . فلا غرو أن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهاب
هذه اللغة من السنة الأعقاب حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها
وتعهدا بالتجديد والإحياء لما وجد منها في البلاد إلا الشيء
الزير لا يعدو في الغالب علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكدر أهل
بلادنا يحافظون على سواه

جميع ما كتب
في مكتبة
قرطبة

الباقية
بالذهب

على أنك لو طفت اليوم في جميع أنحاء البلاد التي كانت مباءة
للعرب ومعرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكدر تجد موضعاً تتوسم فيه
آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر السلف
وجمع شمل علومهم في شمل بقاياهم والتي إن كان قد كتب لهذه اللغة
أن تستأنف البقاء مدة أخرى فإن مبعثها إنما يكون من ناحيتها وعلى
أيدي رجالها وإن سبقهم إلى إحياء رسومها بعض المجاورين لهم ممن
اصطبغوا صبغة العرب وليسوا منهم في شيء وشتان بين من يعنى
بالأمر لضرورة أحوجته إليه ومن تكون فائدته له وخسرانه عليه

المستودع
الذي هو

وقد كان عُقد في هذه العاصمة أعنى مدينة القاهرة مجتمع لُغوى
قطَّالت إليه أعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقع
المتأدبون منه فوائد جمة مما لم تبرح النفوس متطلعة إليه والأمانى
معقودة عليه فاءت ض دون تلك الثمرات ما عهد في أهل الشرق عامة
والمصريين خاصة من وناء الهمم وتخلف الثبات على حين لم يجرؤوا
في هذا الشوط إلا خطوات يسيرة أبانوا فيها عن رأى فطير وبضاعة
مزجاة وصدرت الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منها بيلة بل تجرعت
من اليأس ما زادها على غلتها غلة

ولا بأس أن نلّم في هذا المقام بطرف من تاريخ هذا المجتمع
والكشف عن شىء من أعماله بياناً للغاية التى جعلوها نصب أبصارهم
واستهضوا لها هممهم ثم المبلغ الذى أدركوه من ذلك والأمد
الذى استولوا عليه منه لا نريد بذلك تسوية لهم ولا غصاً منهم ولكن
الإشارة إلى أوجه التقصير فيما هموا به من هذا الأمر الخطير والبحث
فى الخطة التى ينبغى سلوكها للوصول إلى المقصد الذى تمثل لهم
بعد ما أوضحنا من الحاجة الماسة إليه وما يترتب عليه من الفوائد
التي أيسرها تدارك اللغة من السقوط ولحاقها بلغات الغابرين
لا جرم أن الأمور إنما تستتب بالرأى قبل العمل والحازم من

فصل في بيان
النسب والاهتمام

إذا هم بمفعول نظر في غايته قبل مبادئه حتى يكون مدخله فيه سديداً
ومخرجه منه حميداً . فأول ما يؤخذ عليهم في أمر هذا المجتمع أنهم
حصرُوا انتخاب المشتغلين به في عداد رجال هصر وحظروا أن
يشاركهم فيه غيرهم من سائر الناطقين بهذا اللسان وهو أمر قد
خفي علينا وجه الحكمة فيه بل لم نجد لهم عذراً يخرجهم من المؤاخذه
عليه . فإنه إن كان ذلك عن مزيد اعتداد بأنفسهم في كفاية هذا
الأمر حتى أذاهم إلى ترك الاعتداد بغيرهم فهي السوءة التي لا يسترها
إحسان ولا يشفع فيها فضل ولا مزية بل هي السقطة التي تقضى
وحدها على عملهم بالحبوط ومساعدتهم بالإخفاق . وذلك أن ماعقدوا
العزم على إحداثه في هذا المجتمع من الزيادة والتبديل في ألفاظ اللغة
أمر لا يستتب نفعه ولا تتحقق ثمرته إلا بأن يعم استعماله بين المتكلمين
بها وتداوله ألسنتهم وأقلامهم حتى يلحقوه بأصل اللغة ويعتبروه
في جملة أوضاعها . وعلى ذلك فمن لم يدعوه من أولئك إلى مشاركتهم
في الرأي ومشاطرتهم وجه الحكم فقد دعوه بلسان حالهم إلى متابعتهم
فيما يرون والنزول على ما يحكمون وذلك أمر لا سلطة تعضده
ولا يتسنى إلا برضى من يدعونه إليه وارتياحه إلى مرافقتهم عليه
وهيات أن يرضى بذلك منهم وهم قد جعلوا يريدون إليه ما علمت من
الاستخفاف والازدهاء . وإن كان ذلك طلباً للأثرة والانفراد

سند في رتبة الأدب
ليس لعدم فهمها

بالمزية على غيرهم فهو أمر في غير محله أيضاً وليس من النصف ولا
السداد في شيء ، وذلك : أما أولاً فلا أنه لو كان الأمر الذي اجتمعوا
عليه من شؤون مصر الخاصة لم يكن في ذلك لأحد حجة عليهم
ولا حق المطالبة بالدخول معهم فيه ولكنه من الأمور الشائعة بين
جميع الأمة على السواء ليس بعضها أحق به من بعض فانفرادهم به
دون سائرهما استبداد لا وجه له وداع إلى المنافسة والتخاذل ونقض
عروة الوئام . وأما ثانياً فلأن مدار العمل على سد ما طرأ على اللغة
من النقص ووضع ألفاظ بإزاء المعاني التي حدثت في العصر المتأخرة
وهناك من الأوضاع والمصطلحات ما لوجعت مفرداته في كل فن
لبلغت أن تكون مجلدات كثيرة . ولا يخفى أن هذا من الأعمال التي
لا يضطلع بها إلا العدد العديد في الزمن المديد مما يدعو إلى تضافر
الأيدي والاستكثار من العاملين مع مواصلة الجدة وإدمان الاشتغال
ثم هو مع ذلك ربما أتى علينا قرن بتمامه ولم نبلغ آخره بل كيف
نبلغه ونحن لا نفرض إلى ذلك الزمن حتى يكون قد حدث من تلك
الأوضاع إضعاف الموجود الآن . وبعد فإن نقل هذه الأوضاع
إلى لغتنا لا يكفي فيه العلم بقوانين العربية والإحاطة بالألفاظ منها
نستظهرها من بطون الدفاتر بل من مقتضاه أن يكون أكثر المشتغين
به من العارفين باللغات المنقول عنها والمطلعين على علوم أربابها

لبيد الله
كثير من الناس
يجب ان يكون
فيهم من
الذين
قد
فقدوا
الدين

المأثور
جميع
حسب الترتيب

وصنائعهم وسائر فنونهم ليكونوا على بينة من مواضع النقص
المشار إليها وتحقيق المعاني التي ينبغي وضع ألفاظ لها مما يؤدي به
المقصود على وجهه وليس في مصر وحدها من هذه الطبقة إلا رجال
معدودون لانحسبهم إن كانوا قد جعلوا لهم مكاناً من هذا العمل
كافين للاضطلاع به على طوله واتساعه وعلى ما يقتضيه من التفرغ
وإدمان النظر : فقد كانوا والحالة هذه في أشد الحاجة إلى أن يكون
لهم في كل قطر أناس من أمثال أولئك يؤازرونهم في العمل ويكونون
أعواناً لهم على النجاح وكان يبقى لهم من المزية التي حرصوا عليها
أنهم هم الشارعون في تأسيس هذا المجتمع والداعون إليه وإن أَرْضهم
ملقى أشعته ومُنْبثق أنواره وهذا كاف في باب الأثرة وهو مما
لا يَنْفُسُهُ عليهم منافس . وبالتالي فإنهم لو نظروا نظرة في التاريخ
لأرتهم مثال ما هم فيه بما يسفر لهم عن وجه الرأي وينهج لهم سبيل
العمل إذ ليست هذه أول مرة عبر فيها على الأمة مثل ذلك ودعت
الحال إلى الإحداث في اللغة وإدخال شيء جديد بين أهلها . فكل
يعلم ما فعل المأمون حين عزب كتب اليونان والفرس والسريان في
الطب والحكمة والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فإنه لما لم يجد
في الأمة من يضطلع باستخراج هذه الكتب إلى العربية لم يتوقف
عن استدعاء قوم من نساطرة العجم ليتولوا نقلها له لم يستنكف

من ذلك ولا أنف من يبابه من العلماء الذين حشد لهم إلى من أطراف
البلاد وناهيك بهم من كانوا أن يشاركوهم في العمل . وقد أفرد لهم
مكائناً في بلاطه ووزع تلك الأعمال بينهم على ما يحسنه كل فريق
منهم ثم جعل لهم يوماً في الأسبوع يجتمعون فيه وتعرض أعمال
المعربين على علماء اللغة فيقرون منها ما وجدوه سديداً وينظرون
في غيره مما لم يقع المعربون على وجهه فيصححونه

أما ما كان من ثمرات هذا المجتمع فزبدة ما اتصل بنا أنهم عقدوا
ست أو سبع جلسات استحدثوا فيها عشرين لفظة بازاء عشرين كلمة
من الألفاظ الأعجمية ولا بأس أن نذكر بعض هذه الألفاظ في
هذا الموضع تنمة لسياقة البحث

فمنها قولهم « مَرَحِي » « وَأَيْحَى » في مكان « بَرَاثُو » « وَبَرَحِي »
في مكان « فِي » وهي كلمات تقال الأوليان منها لمن أصاب المرمى
والثالثة لمن أخطأه فنقلوها إلى مطلق معنى الاستحسان أو الاستهجان
وقد تكلفوا في هذه الألفاظ على ما نرى « وَأَبْعَدُوا المرمى » بما لا حاجة
إليه لوجود كثير في كلام العرب من مشهور اللفظ وما نوسه يغني
عن اجتلاب هذه الكلمات ونقلها عن مواضعها . فمن قولهم في
الاستحسان أحسنت وأجيدت وأبدعت ولله درك ولله أنت ولله
أبوك وما شاء الله كان وكذا وإلا فلا وما أشبه ذلك . ومن هذا القبيل

قولهم بخ بخ وبه به وزه بكسر فسكون وهذه الأخيرة من مستدركات
الزبيدي على القاموس نقلا عن الأغاني . ويقولون في التقييح سوءة
لفلان وقبحاً له وخزياً له وتباً له وأفّ له ولا أباله وخسئ الأبعد
وخزى ولا درّ دره ونحو ذلك وكلها من الألفاظ الوافية بالمراد على
خلوها مما في تلك من الغرابة ومافي بعضها من الاستهجان في السمع
ومنها قولهم « عم صباحاً » « وعم مساءً » في مقابلة « بنچور »
« وبونسوار » وهما مما لا داعي إليه أيضاً إذ لا أكثر من ألفاظ
التحية عندنا فضلاً عن أنهما من قديم اللفظ الذي قد أميت استعماله
منذ أزمان مديدة فلا تُقبلان في هذا العصر . وبعد فلانز يدهم علماً
أن الذين يقولون بنچور وبونسوار ليس ذلك منهم عن افتقار إلى
لفظ يرادفهما بالعربية فإن أجهل العوام يقولها في تحية الصباح نهارك
سعيد أو صبحك الله بالخير مثلاً وفي تحية المساء ليلتك سعيدة أو
أسعد الله مساءك ونحو ذلك . ولكن الداء الذي أرادوا علاجه
بهاتين العبارتين ليس من الأدوية التي تعالج من هذا الكتاب ولا التي
ينجع فيها هذا الضرب من العقاقير إنما علاجه تلقين فتياننا حب
الوطن وتنشئتهم على عزة النفس والاعتداد بحرمة الذات حتى
لا تتسفل أهواؤهم إلى التشبه بغيرهم من ليسوا بخير منهم أحساباً
ولا أشرف خللاً وقد بقي من أعراض هذا الداء ما تجد استعمال هذه

«الفاظ في جنبه سهلا نسأل الله أن يلهمنا رشد أنفسنا وهو ولي الهداية
ومنها قولهم «نمرة» في موضع «نومرو» وهذه لا تخلو من غرابة
فإن كان القصد منها تعريب اللفظة أي تحويلها إلى صيغة توافق
الابنية العربية فهو مما سبقتهم إليه العامة يقولون كم نمرة هذا الثوب
مثلا. وإن كان مرادهم أن النمرة لفظة عربية بهذا المعنى فلا صحة له
لأن النمرة في اللغة النكتة في الشيء تخالف لونه كما يرى في جلد النمر
مثلا فكان الأولى أن يبحثوا عن لفظة عربية توافق المعنى وإلا فهذه
كغيرها من الكلم التي كانوا يضعونها اتفاقاً من غير أن يطالبهم بها
مطالب فلم يكن عليهم بأس من تركها وإرجائها إلى فتح جديد
ومنها «الخرافة» في تعريب «التورييد» قالوا وهي أي الخرافة
سفينة فيها مرام للنيران يرمى بها العدو في البحر ولا يخفى أن هذه
ليست في شيء من التورييد إذ هو عبارة عن صندوق ونحوه من رقيق
صفائح المعدن يحشى بالبارود ويرسل في قعر البحر حتى يصير تحت
سفينة العدو ثم يفجر بناقض (زنبرك) أو سلك كهربائي فتتقذف
السفينة صعداً. والتورييد في الأصل اسم لسلك كهربائي من لمسه
خدرت يده وتسميه العرب بالرعاد وهو اللفظ الذي استعمله بعضهم
في تعريب هذه الكلمة ولعله أولى
ومنها «الوشاح» اختاروه للتعبير عن «الكوردون» الذي يتخذ

للسيف بجامع الهيئة على أنه ليس تعريياً للفظه الأعجمية إذ هي في الأصل عندهم بمعنى القوة من قوى الحبل ثم نقلوها وإن لم يظهر وجه النقل إلى هذا السيف من منسوج الحرير ونحوه تشده النساء على أوساطهن ويزين به رؤوسهن وتجمع به أطراف السجوف وكلل الأسرة ويتخذ منه نجاد السيف وغير ذلك والوشاح لا يصلح لشيء من هذه المذكورات إلا للمعنى الأخير فهو أخص من اللفظة المعربة ومع ذلك فلا بأس باستعماله لهذا الموضع

ومنها «الطنف» لما يسمى «بالبلكون» إلا أنهم فسروه بالسقيفة التي تشرع فوق باب الدار وهي غير البلكون على أن اللفظة أوسع مما ذكروا ويراد فيها أيضاً الجناح وهو أحسن لفظاً وأدل على المراد

ومنها «المشجب» لما يقال له عند العامة «شماعه» وهو بالافرنجية «بورت ماتو». «وحصب الطريق بالحصباء» مكان قرطهم «وضع فيها المكدام». «والعطاف» والمعطف» لما يسمى «البالطو» و«الباردسو» كذا من غير تعيين والأظهر أن ما اخترعوه يوافق الأول وأما الثاني فأليق ما يسمى به الدثار فإن كان يتقى به ماء المطر فهو الممطر والممطرة

ومنها «البهو» بمعنى «الصالون» و«القُفاز» بمعنى «الجوانتي»

و «البطاقة» بمعنى «الكارت» و «الشرطي» و «الجلواز» بمعنى «البوليس» وهذه كلها مما سبقوا إليه

وبقيت ألفاظ آخر أرسلت من عفو الذاكرة ولم ينضجها الفكر فلا نطيل باستقصائها والكلام عليها . على أنه مهما يكن من أمر هذه الكلمات فلم يكن من المتعين أن يكون كل ما يضعونه وارداً مورد الإصابة ولا ينبغي أن يتوقع مثل ذلك من أى قوم تعاطوا مثل هذا الأمر الدقيق على ما يقتضيه من الإحاطة وبعْد النظر وكثرة التنقيب فى أعطاف الحافظة وبين تضاعيف السطور ولا سيما أن تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد ثم تُنشر بلا بحث ولا تنقيح فلا عجب أن جاء بعضها مرمى للنقد . على أنهم لو مضوا على ما بدأوا به من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتقييد لجاء فيما يضعونه فوائد لا تحصى ولخدموا اللغة خدمة سنية كانت تردّها عليهم شكراً جزيلاً وذكراً على الأيام جيلاً ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات أن تشاذلوا بإنشاد القصائد وإلقاء الخطب ثم ختم المجتمع على هذا القدر

ومهما يكن من أمر هذا المجتمع فقد مضى على وجهه ودرجت بعده الأيام ودبت الليالى والحاجة فى مكانها والرغبات متطالّة والخواطر هائمة والأقلام جافة واللغة على ما كان من عهد هالم تستغن

بتلك الكلمات العشرين ولا وجد بعد ذلك من أجرى لها ذكر أو لا أخطر
للنظر في أمرها ففكر أفكأن ذلك المجتمع إنما عقد لتثبيط العزائم عن
نهضتها وقطع آخر عرق من الأمل وكأن أربابه نفر من الأطباء
اجتمعوا للائتمار على عليل فكان قصارى ما في طبعهم أن قضوا باليأس
منه ثم خرجوا وهم يقولون عظم الله أجركم في الفقيده

فبقى الآن إما أن نُسجل بموت اللغة وموت الآمال معها واليأس
إحدى الغنيمتين وإما أن نستأنف العزم ونجدد السعى في إحياء
ما اندثر منها وتدارك ما طرأ عليها من الثلم وهو مالا تزال الآمال فيه
منوطة بهمهم رجال هذا القطر إن نشطوا له وتفرغوا للاشتغال به
وتنبهوا لمكان اللغة من الأمة وأنها هي عنوانها والفصل الذي تتميز
به من سائر الأمم بل اللغة هي الأمة بعينها فكما تشخص تاريخها
وعلمها وعاداتها وعباداتها فإنها تشخص الأمة بنفسها وبها يشار إليها
ويدل عليها وذلك فضلاً عن أنها هي مجمع ألفتها والوصلة الحسية
بين آحادها وجماعانها فهي علة الضم الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية
التي بها يستتب معنى المدنية وإذا تفتنت للهراد من قولهم الإنسان
مدنى بالطبع شف لك عن حقيقة هذا القول وتبينت موضع اللغة
من الحالة الاجتماعية . واعتبر ذلك في الأمم الأوربية لهذا العهد
فإنها على اتحاد أكثرها في النحلة الدينية وما يصل إليها من لحمه والنسب

إنما تتميز الجنسية عندها باللغة وهي الفصل الفارق بين أمة وأمة
وعليها مدار الوحدة الوطنية وصيانة المصلحة الأمية ومالم تتحد
الأمتان منها في اللغة لا يؤمن انتقاض إحداها على الأخرى ولو
اتحدت بينهما المصلحة الوطنية والجامعة السياسية . بل انظر إلى
الناطقين بلسانتنا العربي فانهم على تباينهم في الأنساب والأديان
والعرائد إلى مالا تجرله مثيلاً في العالم كله وعلى ما بينهم من اختلاف
الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية وتضافر دواعي الشقاق
والافتراق لم تثبت لهم جامعة ينضمون بها ويتألفون حولها سوى
اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو أشد اعتصاماً بها ومحافظةً
عليها من ورثها عن أوليته وانتهت إليه عن غير كلاله

بل عندنا اليوم ماهر أبلغ من ذلك وهو ما نراه من كثير من
فتياننا الذين يتلقون العلم في المدارس الأجنبية فإنك تجد كل فريق
منهم قد أشرب الميل إلى الأمة التي يدرس في لسانها فمن تعلم في
المدارس الإنجليزية مثلاً خرج ميله انكليزياً وكذا من درس في
المدارس الفرنسية أو الطليانية أو غيرها حتى تراه يباهى برجال
تلك الأمة ويتبجح بأخبار ملوكها وكبرائها وفضائل أهل العلم
والشعر منها ويقتبس كثيراً من أخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير
أهلها ومن يقع في نفسه منها موقعاً وربما أشرب عقائد بعض

علمائها وفلاسفتها إلى غير ذلك مما لا تكاد تفرقه فيه عن أحد أفرادها
بل ربما بلغ من بعضهم أن ينزع إلى اللحاق بجنسيتها والانتظام في
عداد آحادها فيطلب مشاركتها في الوحدة الحسية بعد الوحدة
المعنوية وهو نهاية ما يمكن تصويره من الشواهد في هذا الباب
وهذا الأمر مما تنبهت له الأمم الفاتحة من قديم واتخذته قاعدة
تجرى عليها في تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واتقاء سورة المغلوبين
إذا حزبهم من ناحيتها ظلم أو ساءتهم شيئاً من ضروب الخسف
وحسبنا شاهداً عليه ما هو جار ليومنا هذا في الجزائر وتونس من
البلاد العربية حيث أهمل تعليم اللسان العربي في المكاتب إلا
بمقدار ما يتوصل به إلى تلاوة القرآن وجعل كل ما سوى ذلك
باللغة الفرنسية حتى كادت العربية تناسى في تلك الأقطار ولم يبق
منها إلا ما يتداوله العامة من اللفظ المبذوء والكلم السوقى وغابت
عندهم محاسنها وعلومها وتوارى نخها وآدابها وعلى الجملة فانها صارت
عندهم أمراً تافهاً لا معنى له ولا رغبة فيه وهى سائرة في طريق
الاضمحلال بما تغلب عليها من العجمة وشيوعها على السنة أهل
البلاد وذلك فضلاً عما يهرهم كل يوم من اقتدار الفاتحين وما يرون
من آثار سطوتهم ونفوذ شوكتهم وضخامة ملكهم وما لهم من
ضروب التفتن في العلم والاختراع مما تتعاضمه نفوسهم يوماً بعد

الجزائر
دكت
الفرنسية
العلم
الفرنسية
العلم

استئصال أرومة الجنسية والذهاب بآثار الوطنية فان استيقظوا لما
أرصد لهم وبادروا الأمر قبل موقعه وإلا فهذه لغتهم عن قليل ستسقط
من عالم الأقلام وتُستبدل برطانة أعجمية بل تصبح ألسنتهم أشبه
بالسنة أصحاب الصرح وأشرط الأمر بادية من الآن فليعتبروها
وإذا مضى على هذا زمن يسير بقيت اللغة محصورة في المساجد
والمحاكم الشرعية ولم تجدها في المحادثات اليومية إلا على ألسنة
أقوام من الفلاحين وأهل البادية لا يُطلق اسم العربي إلا على شرادم
من أولئك وبئس الخلف

وصف شعر شكسبير

« تعريب محمد السباعي (١) »

شكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر أداها إلينا الحظ في سكوت

(١) « محمد السباعي »

هو أحد كتاب هذا العصر الممتازين بالبراعة في الترجمة من الانكليزية
إلى العربية المعروفين بالتمكن في كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معاً
إلا أنه في ترجمته أميل إلى التندر بالغريب وتدوين التراكيب الجزلة منه
إلى السلاسة والرقّة ولعاً باللغة العربية وشغفاً بإحيائها فمن لا ينظر إلى
الكتابة بالعين التي ينظر بها إليها يرى في كتابته أحياناً من التعقيد
والمشادة غير ما يراه : أمّا كلمته هذه فهي مقتطفة من كتاب الابطال
لنكارليل الذي ترجمه إلى اللغة العربية

منه

فتناولناه في سكوت كأنما هو شيء صغير الشأن قليل الخطر وإنه في الواقع النعمة لا تُقدَّر والهبة لا يُحدَّد مقدارها ولا يحصر

من أسباب عظمة شكسبير براعة تصويره للأشخاص والأشياء ولا أحسب أن إنساناً يماثله في تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة فإذا نظر إلى شيء لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميمه له وكان ذلك المنظور يتحلل أمامه في ذوب من الضياء فتتكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنيائه ونحوه. نسمى ذلك إبداعاً واختراعاً وخلقاً شعرياً وما هو لو تأملت إلا النظر الدقيق المستوعب للشيء المحيط بظاهره وباطنه

ماروايات شكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها وما صناعته بصناعة إنما هي وحى يتدفق به طبعه عفواً ويهطل به خاطره سحاً دراكاً (١)

إن شاكسبير نأى تتناول له الطبيعة فتترنم فيه بأشجي نعماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ولعل الأمم التي ستجيء بعد آلاف السنين ستجد في شاكسبير هذا معاني جديدة وبياناً لا لغاز حياتهم

كان لشاكسبير حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح

what is the matter with you.

والأشجان وأغانيه تشفُّ عما كابده من غصص الزمن . وتجرَّع من
من مرارة المحن . وقد أقال الرأي من زعم أنه كان خلواً من الأسى
صفواً من القذى فأنتى لرجل أن يصوِّر أمثال هامليت وكوريلاناس
وما كبث^(١) وغير هذه من القلوب المتألِّمة إلا وقد عرف قلبه الكبير الألم
إذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير أو بلاد الهند نقول سواء
حكمتنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير . فسيجيء يوم يصبح
فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شاكسبير
المملك الذي يضمنا جميعاً

الشعر

« لمصطفى الرافعي »^(٢)

أول الشعر اجتماع أسبابه . وإنما يرجع في ذلك إلى طبع صقلته
الحكمة وفكر جلا صفحته البيان . فما الشعر إلا لسان القلب ذا

(١) أسماء أشخاص بعض روايات شكسبير

(٢) « مصطفى الرافعي »

شاعر من شعراء العصر المجيد وكاتب من كتبه المتأديين ويذهب في
شعره مذهب شعراء المعاني كالمتنبي وابن الرومي وغيرهما من الذين يحفلون
بجمال المعنى قبل جمال الأسلوب فإن صح له الأول لا يزال بالثاني على أن
له في كثير من الأحيان خصوصاً في النسيب ما يعد في طبقة الابداع حسن
تصور وبراعة نظم ورقة أسلوب

خاطب القلب . وسفير النفس إذا ناجت النفس . ولا خير في لسان

غير مبين ولا في سفير غير حكيم

ولو كان طيراً يتغرد لكان الطبع لسانه ، والرأس عُشه والقلب روضته . ولـ كان غناؤه ماتسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء . وحسبك بكلام تنصرف إليه كل جارحة . وتضم عليه كل جانحة ويحني من كل شيء حتى لتحسب الشعراء من النحل تأكل من كل الثمرات فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وكأنما هو بقية من منطق الإنسان اختبأت في زاوية من النفس فما زالت بها الحواس حتى وزتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد ذلك ألقاناً بغير إيقاع ألا تراها ساعة النظم كيف تتفرغ كلها ثم تتعاون كأنما تبحث بنور العقل عن شيء غاب عنها في سويداء الفؤاد وظلماته لذلك كان أحسن الشعر ما تغنى به قبل عمله وهي طريقة تفنن فيها الشعراء حتى لكان الخطيئة يعوى في أثر القوافي عواء الفصيل في أثر أمه .

وترى المجيد من أهل الغناء إذا رفع عقيرته يتغنى ذهب في التحرك مذاهب حتى كأنما ينتزع كل نعمة من موضع نفسه فيتألف من ذلك صوت إذا أجال حلقه فيه وقعت كل قطعة منه في مثل موضعها من كل من يسمع فلا يلبث أن يستفره طربه . كأنما انجذب قلبه . وتصبو

نفسه . كأنما أخذ حسه . لا فرق في ذلك بين أعجمي وعربي . ومن
 أجل هذا ترى أحسن الأصوات يغلب على كل طبع وإنما الشاعر
 والمغنى في جذب القلوب سواء . وفي سحر النفوس أ كفاء إلا أن هذا
 يوحى إلى القلب وذاك ينطق عنه . وأحدهما يفيض عليه والثاني يأخذ
 منه . والويل لكليهما إذا لم يُطرب هذا ولم يُعجب ذاك
 والشعر موجود في كل نفس من ذكر وأنثى . فإنك لتسمع الفتاة
 في خدرها . والمرأة في كسريتها . والرجل وقد جلس في قومه والصبي
 بين إخوته . يقصون عليك أضغاث أحلام فتجد في أثناء كلامهم
 من عبق الشعر مالمو نسمة لفغمك^(١) . وحسبك أن تكسر وسادك
 تتحدث إليهم فتراه طائراً بين أمثالهم وفي فلتات ألسنتهم وهو كأنما
 قد ضلّ أعشاشه . ولقد نبغ فيه من نساء هذه الأمة شمس سطعن
 في سماء البيان . وطلعن في أفق البلاغة ولا يزال الناس إلى اليوم
 يروون للخنساء وجنوب وعلية وعنان ونزهون وولادة وغيرهن
 وبحسبك قول النواصي ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأةً منهن
 الخنساء ويلي

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعدناه ضرباً من
 قواعد الإعراب لا يعرفها إلا من تعلها ولكنه يتنزل من النفس

(١) فغمه الطيب سدّ خياشيمه

منزلة الكلام فكل إنسان ينطق به ولا يقيمه كل إنسان : وأما ما يعرض له بعد ذلك من الوزن والتقفية فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والإعراب . وإنك إنما تمدح الكلام بإعرابه ولا تمدح الإعراب بالكلام

ولم أقرأ أجمع فيه من قول حكيم العصر . وإمام الإفتاء في مصر (١) لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر . ولا فيما قالوه في الشعراء أجمع من قول كعب الأحمري «الشعراء أناجيلهم في صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة» ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو من قديم الشعر العربي

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبلية
أو كان قرني واحدا كفيته

وإنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف وهناك رفع امرؤ القيس ذلك اللواء وأضاء تلك السماء التي ما طاولتها سماء . وهو لم يتقدم غيره إلا بما سبق إليه مما اتبعه فيه من جاء بعده . فهو أول من استوقف على الطلول ووصف النساء

(١) يريد به المرحوم الشيخ محمد عبده

بالظباء والمهى والبيض وشبه الخيل بالمقبان والعصى وفرق بين
النسيب وماسواء من القصيدة وقرب مأخذ الكلام وقيد أو ابده
وأجاد الاستعارة والتشبيه . ولقد بلغ منه أنه كان يتعنت على كل

شاعر بشعره

ثم تتابع القارضون من بعده فمنهم من أسهب فأجاد . ومنهم
من أكب^(١) كما يكبو الجواد . وبعضهم كان كلامه وحى الملاحظ
وفريق كان مثل سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها . ولقد
جدوا في ذلك حتى أن منهم من كان يظن أن لسانه لو وضع على
الشعر لخلقه . أو الصخر لفلقه

ذلك أيام كان للقول غرر في أوجه ومواسم بل أيام كان من
قدر الشعراء أن تغلب عليهم ألقابهم بشعرهم حتى لا يعرفون إلا
بها كالمرقش والمهلhel والشريدو الممزق والمتلس والنابعة وغيرهم ومن
قدر الشعر أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها
بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في
الأعراس . وأيام كانوا لا يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو
فرس تنتج . وكانت البنات ينفقن بعد الكساد إذا شبَّ بهن الشعراء
ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذانهم

أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموه في سمط من الشعر وادخروه في
سَفَط من البيان حتى أنك لترى مجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم
وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستهنون حتى من
دوابهم . وكان القائل منهم يستمدّ عفوَها جسده وربما لفظ الكلمة
نحسبها من الوحي وماهى من الوحي ولم يكن يفاضل بينهم إلا أخلاقهم
الغالبة على أنفسهم . فزهير أشعرهم إذا رغب . والنابعة إذا رهب .
والأعشى إذا طرب . وعنترة إذا كلب . وجريز إذا غضب وهلم جرا
ولكل زمن شعر وشعراء ولكل شاعر مرآة من أيامه فقد انفرد
امرؤ القيس بما علمت واختص زهير بالحوليات واشتهر النابغة
بالاعتذارات وارتفع الكُميت بالهاشميات وشمخ الخطيئة بأهاجيه وساق
جرير قلائصه وبرز عدى في صفات المطية . وطُفيل في الخيل والشمّاخ
في الحمير ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره فيها فقال
ما أوصفه لها إني لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً وحسبك
من ذى الرمة رئيس المشبهين الإسلاميين أنه كان يقول « إذا قلت
كأن ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لسانى » ولقد فنّ الناس ابن المعتز
بتشبيهاته . وأسكرهم أبو نواس بخمرياته . ورفّت قلوبهم على زهريات
أبى العتاهية وجرت دموعهم لمراثى أبى تمام وابتهجت أنفسهم بمدائح
البحترى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم

فمن رجع بصره في ذلك وسلك في الشعر ببصيرة المعري وكانت
له أداة ابن الرومي وفيه غزل ابن أبي ربيعة وصباية ابن الأحنف
وطبع ابن برد وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة الجهم ونفر
أبي فراس وحنين ابن زيدون وأنفة الرضي وخطرات ابن هاني وفي
نفسه من فكاهة أبي دلامة ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة
وبين جنبيه قلب أبي الطيب فقد استحق أن يكون شاعر دهره
وصناجة (١) عصره

وأبرع الشعراء من كان خاطره هدفا لكل نادرة فربما عرضت
للشاعر أحوال مما لا يعنى غيره فإذا علق بها فكره تمخضت عن بدائع
من الشعر فجاءت بها كالمعجزات وهي ليست من الإعجاز في شيء ولا فضل
للشاعر فيها إلا أنه تنبه لها. ومن شدة يده على هذا جاء بالنادر من حيث
لا يتيسر لغيره ولا يقدر هو عليه في كل حين

وليس بشاعر من إذا أنشدك لم تحسب أن سمعه مخبوء في فؤادك
وأن عينك تنظر في شغافه. فإذا تغزل أضحكك إن شاء وأبكاك إن
شاء. وإذا تحمس فزعت لمساقط رأسك. وإذا وصف لك شيئا
هممت بلمسه حتى إذا جثته لم تجده شيئا. وإذا عتب عليك جعل
الذنب لك ألزم من ظلك. وإذا نثل كنانته رأيت من يرميه صريعا

لا أثر فيه لقذيفة ولا مدية ولكنها كلبة فتحت عليها عينه أو ولجت
إلى قلبه من أذنه فاستقرت في نفسه وكأما استقر على جمر وإذا مدح
حسبت الدنيا تجاوبه وإذا رثى خفت على شعره أن يجري دموعا
وإذا وعظ استوقفت الناس كلمته وزادتهم خشوعا وإذا نخر اشم
من لحيته رائحة الملك فحسبت أنما حفت به الأملاك والمواكب
وجماع القول في براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه فإن
الكلمة إذا خرجت من القلب وقبت في القلب وإذا خرجت من
اللسان لم تتجاوز الأذان

ولقد رأينا في الناس من تكلف الشعر على غير طبع فيه فكان
كالأعمى يتناول الأشياء ليقرأها في مواضعها وربما وضع الشيء الواحد
في موضعين أو مواضع وهو لا يدري

وأبصرنا فيهم كذلك من يحجى باللفظ المونق والوشى النصير
فإذا نثرت أوراقه لم تجد فيها الأثمرات فجّة (١)

ورأينا في المطبوعين من أثقل شعره بأنواع من المعاني فكان
كالحناء تزيدت من الزينة حتى سمجت فصرفت عنها العيون بما
أرادت أن تلفتها به على أن أحسن الشعر ما كانت زينته منه وكل
ثوب أبسته الغاية فهو معرضها

(١) الفج من الفواكه الذي لم ينضج

وهو عندي أربعة أبيات بيت يستحسن وبيت يسير وبيت
يندر وبيت يُجن به جنونا وماعدا ذلك فكالشجرة التي تُفَض
ثمرها . وجنى زهرها لا يرغب فيها إلا محتطب

أما مذاهبه التي أبانوها من الغزل والنسيب والمدح والهجاء .
والوصف والثناء وغيرها فهي شعوب منه وما انتهى المرء من مذهب
فيه إلا إلى مذهب ولا خرج من طريق إلا إلى طريق ألم تر أنهم
في كل واد يهيمون ؟ وما دامت الأعمار تتقلب بالناس فالشعر أطوار
آونة تخطر فيه نسيمات الصبا ما بين أفنان الوصف إلى أزهار الغزل
ويتسبب فيه ماء الشباب من نهر الحياة إلى مشرعة الأمل . وطورا
تراه جم النشاط تكاد تُثقل بمائه السيوف ، وتُفرق بحده الصفوف
وحينا تجده وقد ألبسه المشيب ثوب الاعتبار . وجملة بمسحة من
الوقار . وهو في كل ذلك يروى عن الأيام وتروى عنه وما أكثر
فنون الشعر إذا رويتها عن أفانين الأيام

وأما ميزانه فاعمد إلى ما تريد نقده فردّه إلى النثر فان استطعت
حذف شيء منه لا ينقص من معناه أو كان في نثره أكمل منه منظوما
فذلك الهذر بعينه أو نوع منه ، وإن يكون الشعر شعرا حتى تجد
الكلمة من مطالعها لمتقطعها مفرغة في قالب واحد من الإجادة

ماهية اللغة

« لسعادة أحمد فتحى باشا زغلول (١) »

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالإرادة للتعبير عن حركة من حركات النفس . ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التى تدل على الأفكار وأن تلك الشارات تنقسم إلى قسمين : طبيعية وصناعية

فالأولى : هى التى تصدر عن الذات من حيث هى أى تقتضى وجودها المادى . وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الأعضاء ومثل الأصوات التى ليست ألفاظاً والكلام أى المنطق

(١) « أحمد فتحى باشا زغلول »

هو نابغة الأمة العربية علماً وفضلاً ونادرتها ذكاء وفهماً وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة الفحصية التى لا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ ومما انتفعت هذه الأمة فى عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز فى كتابته بالبيان والايضاح والدقة فى وضع الألفاظ بإزاء معانيها فلا يتجاوز الإقليلا ولا يتخيل إلا نادراً ولا يغرب ولا يتندر بحال من الأحوال

والثانية : خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الإنسان في
الماديات الخارجة عنه وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها
دواماً طويلاً كان أو قصيراً كالأعلام والنقش والرسم والحفر والكتابة
ومما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعي عام لكونه مفهوماً بذاته من
جميع الناس ومن الحيوان أحياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الأعضاء
وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق
سابق على مفهوم تلك الشارات . وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي
أو الاتفاقى لأنه عبارة عن مجموع الألفاظ المخصوصة الموضوعة
للغنى المخصوصة وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه
الألفاظ : أوصل إلى الذهن بواسطة الأذن أو العين معانى مخصوصة
متفقاً عليها

وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعي عاماً أى أن كل الناس يدركون
المراد منه كالرسم مثلاً وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها
أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم
والصحيح أن اللغة هي مجموع العادات المخصوصة التى تجرى
عليها كل أمة فى التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة
وقد تقدم بيان معنى الكلام
ولا يصح إطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع إلا إذا كانت

النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله لأن قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث أن الأذن أو العين ترسم في ذهن السامع أو القارئ صورة المدلول كما هي ولا يتم ذلك إلا باجتماع شروط ثلاثة

الشرط الأول — أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً

الشرط الثاني أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له

الشرط الثالث — أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فإذا اشتق منها مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقة بهذا الاسم ثلاثة أيضاً

الأول — أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل إلى هذا إلا إذا سهل استعمال اللفظ بقدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لأجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزية اللهم إلا لغة علماء الرياضة بل إن اللغات الأخرى لن تنالها أبداً

الثاني — الملازمة وهي الخاصة الموجودة في الألفاظ أو التراكيب أي الصيغ تلك الخاصة التي يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضه

والملاسة تقتضى تحليل الفكر الإنسانى وذلك غير ميسور عادة
فى اللغات الأصلية إلا نادرا

الثالث — الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين واصناعة
ترتيب الألفاظ وتركيب الجمل ترتيبا وتركيبا ينتفى معهما الإبهام
ويرتفع الشك والالتباس . ومن اللغات ما تميل بأهلها إلى الإغراب
فى التعبير وهذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول
طبيعيا أى بسيطا ازداد وضوحا فالبساطة هى أمثل طرق الكلام
على أنها طريقة العلم والواقع وهى التى يسهل بها التعبير عن الأفكار
وحركات النفس كما ينبغى

وكأنى بكم وقد استنتجتم مما ذكرت إلى الآن خطر مذهب
التجوز أو الاشتراك فى اللغة وذكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفى من
وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها
من الأمم الأخرى

سمعتُ كلاما كثيرا فى اللغات الأجنبية وأن لها أصلا أو أصولا
ترجع إليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها فى حل مما يفعلون
وأما نحن فلا أصل للغتنا وبينون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه
يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فإنى
أنظر إلى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوروبا المعروفة
بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجد لها لغات ممتازة
تماما عن ذلك الأصل بل أجد الفرنساوى من حيث هو لا يعرف
كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى أن كل لغة
حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ
تميزها عن أصلها تماما فإذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك
الأصل فإنما هم يستعبرونه من لغة أعجمية بالنظر إلى لغتهم ألا ترون
أنهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها إلى اليونانية
القديمة وأحياناً يستعبرون كلمتين من كل لغة كلمة وينحتونهما
ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزءا منها
ويفسحون له فى كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب
حروفه الأبجدية .

أنهم يعملون أكثر من هذا . إن لكل بلد عادات فى أكلها
وسكنها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم
المسميات لا يعرفها قوم آخرون إلا أن التجارة وطرق المواصلات
تنقل هذه المسميات أو تجعلها تشاهد فى أما كنهما من النازحين إليها
فيرى أهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لأهل البلد

الآخر ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماماً لكنهم لا يختارون ولا يتصدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفرقون شيعاً وأحزاباً بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرون في حديثهم أن يلفظوه كأنهم في نطقهم به من أهله . والأمثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم يعملون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم الفرنسي وهو يقرر مذهبه عند ما يأتي على ما يخالفه من مذاهب الألمان إذا وصل إلى معنى خاص بأحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه الألماني وهكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يشير عاطفة الحنان والإشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا إلا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الأمم الغربية عادة لتكون الألفاظ الغربية عن لغتهم برهانا على سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلاً على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمته

قالوا إن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا بعمل ما يعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى في هذا الاعتراض إلا أنه

دليل أحد أمرين فإما شعور بعجزنا عن المجازاة لفتور في همتنا أو
قصور في معارفنا وإما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة
هي أيضاً إلى الإصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور
تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون . وتنقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون
نحن إما عرب أو مستعربون . وإما أجنب عن لغة العرب أو
مولدون . فإن كنا الأولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيه
مصلحتنا . وإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة
وبكوننا ورثاها عنهم بعد أن بادوا فليس من له أن ينازعنا في
استعمال ما كان مباحاً لأبائنا من قبلنا وإن كنا أجنب أو مولدين
فمن له أن يسيطر علينا ويحرمانا ثمرة الكد في حفظ هذه اللغة
وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم
ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها إلى لغتهم فلما وجدوا منها
استعصاءً في بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها
فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على إدراك
ما طلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول
وذوى مجد وسلطان ونحن على مانع من الضعف والانزواء على

أنهم في عزهم وبعد نخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم
فنفروا من العجمة لأنها عجمة بل استخدموها حيث وجب الأخذ
بها تمكيناً للغتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن
مجاراة تيار التقدم وهم أولو الرأي فيه وخوفاً من أن يعيقهم الجمود
فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التي كانت تعاصرهم

أيجوز لنا أن نتخلف عن السير في طريقهم والاسترشاد بهديهم
والعمل بطريقتهم بحجة أنهم انقرضوا وبادوا فلاحق لنا في متابعة
الرقى ولا يجوز أن نخطو بعدهم خطوة إلى الأمام لكن من الذي
استاجرنا حراساً من الخرس على هذه الوديعة وبأى قوة أخضعنا
على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان
الهمة وانحلال العزائم أنقص في الأفهام أم قصر في الأجسام أم
جهل بأننا من البشر لنا كل حقوق الإنسان

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه وإن أصبح عديم الجدوى
وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدرس والمطالعة وأن نكتفي من
كل شيء بما ورثنا عن الآباء لنعيش كما عاش الأولون. غير أنى
أرجوكم أن تتعلموا الصبر فلا تجزعوا إذا أصابكم مصائب التقدم
فتركتم آخر القوم ولا تجزعوا إذا هصرتكم عوازل الرقى فمئيتهم بمن
يقف متفرجاً عليكم وأنتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك

بحركة هي عبارة عن اهتزاز الشيء مكانه وتنطق بلغة داخرة قد دخلت
من العلم الذي أصبح دارجاً على ألسنة المتفرجين

خاف خصوم مذهبنا على اللانة العربية وحسبوها طعاماً سهل
التناول والهضم في معد اللغات الأعجمية فاستجاروا من التعريب
وصاحوا إننا لا نطبق اسماً أعجمياً يدخل عليها

أليست هي تلك اللغة الحافلة بالألفاظ والتراكيب العالية والقول
الفصيح المصونة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
وهي لم تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها في كل عام بل إن هذا العمل
عما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الأعاجم
في اعتبارها من اللغات الميثة

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن ولا خوف على القرآن مادام
في الوجود مسلم ألا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف
العربية من المسلمين إلىكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا
تلك أمم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير
لغة أمته وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان
على دمه أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن يمينكم وتفسحوا المجال في
لغتكم للتقدم باليسار لتناولوا السعادتين وتكونوا من الناجحين
في الدارين .

قالوا العلم نافع . قالوا كثير منه مخالف للدين . قالوا الحضارة
تهددنا فلتتها . قالوا هي تخالف الدين . قالوا حدثت مستحدثات
فسموها . قالوا حرام عليكم إن كنتم فاعلين . من جرّاء هذا قال
الفرنج عنا إنا قوم جامدون وما جودنا إلا من الدين فصحنا مع هذا
وقلنا لهم بل أتم قوم ظالمون . مالنا وللدين نجره في كل أمر ونقيمه
حاجزاً في وجه كل باحث حتى في الأمور التي يأمر هو بتناولها .
يأمرنا الدين بتعلم ما خلق الله وأن نسير على سنة التقدم التي سنّها
للبشر ونحن كل يوم في إحجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن
الحق والصواب .

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم
وحدكم في هذا الوجود ولا تقدم لكم إلا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها
وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون لكن لا تكثروا من الاشتقاق
الخارج عن حدّ القياس المعقول . ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد
الاشتراك أو التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجم تهدها
على السنة العامة وهي لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة . أقيموا في
وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة
الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين

(حقيقة الشعر)

«للامير شكيب أرسلان» (١)

الشعر قول ثقیل وعبد عقلی باهظ لا يستقل به سوى
الخناذيذ (٢) القرح (٣) والمغاوير السبق . ولا يجيده إلا الناحعون (٤)
الكمل أولو القوة الباهرة والمُنة (٥) الوثيقة ، والسليقة الفائقة والطبيعة
الصافية التي لا تُتاح إلا للآحاد . ولا يؤتاها إلا الأفراد . يكاد
قائله يتجرد من عالم المادة بقوة نفسه . وشفوف حسه . ويلحق
بالملا النوراني في مضاء عزمه . وورى زنده . وسرعة فكره . ولو
كانت الكهربية شخفاً لكانت هي الشاعر

وحسبك أن الأولين الذين لهم الأولية في البيان كما في الزمان

(١) «الامير شكيب أرسلان»

شاعر من عيون شعراء العصر وكاتب من أقدر كتابه على البيان الفصيح
واللفظ الجزل ويمتاز في الصناعتين بسرعة البديهة والذهاب مذهب الطريقة
البدوية في الأسلوب وهو أحد علماء الادب الذين لا ينطقون إلا عن علم
راسخ وأدب مكين ولو كان للأدب عنده من الحظ ما للسياسة لرفع من
شأنه ما قصرت عنه أيدي سواه

(٢) الخنذيذ الشاعر المجيد (٣) القارح من ذى الحافر الذى شق
نابه وطلع (٤) يقال نخع بالامر إذا كان به خبيراً (٥) المنة القوة

كانوا يحسبون الشعر قوة من وراء الطبيعة وربما جعلوا له شياطين
وكان الشعر في الجاهلية دولة ومُلْكًا وإذا أجاده واحد تهيبوه تهيب
الأمراء، وأجلوه إجلال الرؤساء. وإذا تذبذبوا في الإيمان برسول
بهزتهم آياته. وأخفتمهم معجزاته. أحالوا إعجازه على الشعر كأنه
الدرجة الثانية التي يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحي. نعم
إن الشعر قوة روحية يُفيضها الله على من يشاء من عباده فتخلق
بالشاعر. تخليق الأجنحة بالطائر. وتطوف به في سبع سموات الخيال
فيرى الطبيعة في أنفهم مشاهدها، وأشبح شرفاتها. وأبهى مجالها.
وأشجى أصواتها. وأذكى أعرافها. وينفث مشاهدته من هذه المرائي
المجسمة في قوالب من النطق فتق الله بها لسانه الهائل فجاءت شبيهة
بموضوعها وتحدّر بها تحدر السيل في صيب وهتف المقام بالمقيم
وطلب العلو بعضه بعضاً. وتجاذبت البدائع. وصدقت نسبة الروائع
ففصل الكلام عما شئت من فكر سام ومقام شريف وما أردت
من معنى بكر ولفظ فحل لذلك قيل إن الشعر هو لغة تامة

وإذا تغلغل الشاعر في أنحاء النفس وأحشاء القلب وهام في أودية
الانفعال وأخذ يؤدي من هناك ما يليقه إليه مضاعفاً هوّ ملح
وشوق هاف وحب شاغف وتمن واصب وتوسل هالغ ورغبة
ورهبة وإيمان كإيمان العجائز ثم أب من أودية إحساساته

وأعطاف فراساته مفضياً بذلك إلى سامعيه أشجى وأصبي . وأرقص
وأبكي ، وأحرق وروى . ونضروأذوى . وأياس وأرجى . وأفقر
وأغنى . وأسعد وأشقى . وبلغ من كل مقام الغاية القصوى . وحذب
بأفنان سدره المنتهى



فالشعر إذن مظهر المرء في أسنى خواطر فكره وأقصى عواطف
قلبه وأبعد مراعى إدراكه والشعر هو رؤية الإنسان الطبيعة بمرآة
طبيعته فهو شعور عام وحس مستغرق يأخذ المرء بكليته ويتناوله
بجميع خصائصه حتى يروح نشوان خمرة أسير رايته ويريه الأشياء
أضعافاً مضاعفة ويصورها بألوان ساطعة وحلى مؤثرة تفوق الحقائق
وربما أذرت بها وصرفت النفس عن النظر إليها فهو أحياناً أحسن من
الحسن وأجمل من الجمال وأشجع من الشجاعة وأعف من العفاف وإن
الظبي في قصيدة غير الظبي في فلاة بل غير الظبي في ملأه وإن الأسد
في منظومة غير الأسد في مفازة وذلك حيث كان الشعر كلاماً يلقي
بلسان الإحساس ونطقاً ينزل عن وحى الخيلة وأوصافاً يفضى بها
الشوق وإنما كانت المبالغة زيادة على الحقيقة لتمكين السامع من
الوصول إلى مقدار الحق والحرص على أن لا ينقطع منه قسم على
طريق الإلقاء وفي أثناء الانتقال فكأن هذه الزيادة جعلت لتملاً
الفراغ الواقع بين المدرك والمدرك حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملاً

بكل قوته ولا يحل في العقل إلا بجميع حاشيته

وللشعر سعة المذهب والتفنن في شعوب القول بحسب ما تقتضيه
المطالب فهو ملك الكلام يتصرف فيه كيف يشاء فيه تجسيم المجرد
وتجريد المجسم وتشبيه المجردات بالمحسوسات وتلطيف المحسوسات
إلى درجة المجردات فتارة يجسم المجرد حتى يكاد يحس ويمس وتقع
عليه الأيدي وتنعكس أشعة نوره على العين وتهز دقائقه قهز بالهواء
طبلة الأذن وطوراً يهفهف^(١) به الملموس ويهلل المحسوس حتى يشف
شفوف البلور . ويسطع من ورائه النور ، فإذا شاء هلل وإذا شاء
أجزل وإذا شاء أذاب وإذا شاء أجمد وكأنه كيمياء الكلام يركب
من أجزائه ما يريد ليبرم الصورة التي يرسمها الخيال

وعليه فهما يكن من ذلاقة المنطق وقوة التأدية وعلو اللسان
المترجم به ذلك الشعور السامي فأني للكلام أن يحيط بهاتيك
الانفعالات وأني للشاعر أن يتغنى لسانه بكل ما يتغنى به جنانه وأين
الثريا من يد المتناول فإن اللغة رموز محدودة وإشارات مخصوصة
وهي تطمع أن تعبر عما في النفس البشرية والنفس البشرية عالم
بنفسه لا تدرك له البصيرة أفقاً وبحر لا تعرف له قراراً ولذلك كان

(١) هفهفه جعله مهفهفأ وهو الضامر أو الرقيق

أشعر الناس أمكنهم من هاتيك الخيالات وتلك العواطف أن ينفذها
في أبهج حلاها وأسطع ألوانها هذا هو أتم الناس لغة

فكيف لا يكون بعد ذلك الشعراء أمراء الكلام وملوك الألسنة
ولا يكون لهم التصرف باللغات واليد العليا في النزع والإثبات والشعر
يبقى بقاء الشمس ويسير مسير الأرض وقد رواه الخلف عن السلف
وتدارسه الناس منذ أيام العرب البائدة وحفظوا شعر جديس وعاد
وقد محيت رسوم إرم ذات العماد . وكان من آل امرئ القيس
ثلاثون ملكا بادوا وباد ذكركم وبقي ذكرك وحده بما أمسكه من
شعره ومكّنه من قوله السائر في الأعقاب المتسلسل في الأيام تسلسل
النظف في الأصلاب وأي رجل من اليونان بقي ذكرك بقاء ذكرك
هو ميروس مع كون بعضهم شك في مجرد وجوده بل أي صغير من
صغار العرب لا يسمع بذكر المتنبئ ولا يحل اسمه في أوائل الأسماء
التي تطرق ذاكرته ويتعلمها منذ طفولته وقد لا تعرض له أسماء أشهر
الملوك إلى زمن كهولته

نعم إن الشعراء هم سدنة هياكل البيان وبهم تحفظ اللغة ومنهم
يعرف تاريخ العقل البشري وعليهم معول القلوب إذا أصدأتها
الكروب وإن أبقى آثار الآدميين هو القول وأبقى أصناف القول
هو الشعر لأن النثر كما يقال يتناثر تنثر الشرر . والنظم يرسخ رسوخ

النقش في الحجر . بل قد تمحى النقوش من صفحات الحجر ولا تمحى
الأشعار من رؤوس البشر

مقابلة

(بين الشعر العربى والشعر الأفرنجى)

« للشيخ نجيب الحداد »^(١)

« الشعر هو الفن الذى ينقل الفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال
والكلام الذى يصور أرق شعائر القلوب على أبداع مثال . والحقيقة
التي تلبس أحياناً أثواب المجاز . والمعنى الكبير الذى تبرزه الأفكار
في أحسن قوالب الإيجاز . وأخفى وجدانات النفس تتمثل للمرء
فيحسبها سهلة وهى منتهى الابداع والإعجاز . بل هو الآلة التي
تخرج من قلب الشكوان . والنغمة التي يترنح لترديدها الطروب
النشوان والشكوى التي تخفف لوعة الشاكي ويأنس بها المحب »

(١) « الشيخ نجيب الحداد »

كاتب من أحسن كتاب هذا العصر وشاعر من أرق شعرائه ومترجم
من أفدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة السائغة ولقد مر علي وفاته
بضع سنين ولم أر بين السوريين ولا المصريين من سلك مسلكه في ترجمة
الروايات الإفرنجية ولو لم يكن له من الآثار إلا رواية (غصن البان)
ورواية (الفرسان الثلاثة) لكفاه

الولهان . بل هو الحكمة يجدها الحكيم فيبرزها بما يليق بها من محاسن
اللفظ . ويوازن بين أجزائها موازنة تحب ورودها على الأذن
وتقرب منالها من الحفظ والجمال تراه العين فتحب أن تحفظ ذكره
فتبقيه صورة ماثلة يراه بها من لم يكن قد رآه . ومن نظر في تاريخ
الشعوب وسيرة الأمم لم يجد شعبا ولا أمة بلغت غاية من المدنية
أو تأخرت درجات في الهمجية . إلا كان للشعر منها نصيب وللنظم
بين أفرادها سجية . يدل ذلك على أن الانسان شاعر كما هو ناطق
بالطبع وأن الطبيعة تقتضى التوازن والانتظام في عناصرها وسائر
كائناتها وأحوالها وما أحسب الشحرور يغنى والقمرى ينوح إلا ولهما
من انتظام تغاريدهما طرب ومن وزن ألحانهما سرور هو مسرة
الشعر في النفس وطيب أوزانه على الأذن وخفة تقطيعه على الحواس
وما الغناء لولا توازن نبراته وتشابه إيقاعه إلا صوت ممل لا معنى
له ولا تأثير فيه

ولقد أولعت بهذا الفن منذ الصبا وصرفت له من أوقات الفراغ
برهة طويلة قرأت فيها دواوين العرب ونظم المجيدين من شعرائهم
ثم قرأت كثيرا من شعر الفرنسيين وشعر غيرهم منقولا إلى لغتهم
كشعر اليونان والرومان والانكليز والالمان والاطليان وكلهم من
شعراء الدنيا المعدودين الذين لم تترجم أقوالهم إلى اللغة الفرنسية

إلا لشهرتها وإبداع ناظميها مثل هو ميروس وفرجيل وتاس وداتي
وشكسبير وشيلر وأمثالهم من أئمة الشعر الافرنجى الذين تضرب بهم
الأمثال ويُستشهد بأقوالهم في كل مقال . وقد سألتنى من لا تسعنى
مخالفته أن أستعين بما توصلت اليه من قراءة الشعرين العربى والافرنجى
على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما أو أتكلم عن الفرق بيننا وبين
أهل الغرب فى معانى الشعر وأنواع إيرادها وأذواق ناظميها وطرائق
البيان فى مأخذها وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد
نظمه اللفظية والمعنوية عند كل من الفريقين . وهو ولا شك مطلب
عسير ونية^(١) بعيدة تقف دون غايتها سوابق الأقلام . وتحسر
دون إدراكها بصائر الأفهام . إذ ينبغى للكاتب أن يعلم لغة كل شاعر
من هؤلاء الشعراء ويعرف منزلته الشعرية فى أهل لسانه ويكون قادراً
على الحكم فى شعرهم وبيان الفرق بينه وبين الشعر عندنا مما يستلزم
علماً كبيراً وخبرة واسعة بجميع هذه اللغات

والكنى لست فى شئ من ذلك ولا أنا فى هذا البحث من
حيث الفصاحة اللفظية والنراكيب اللغوية بل أنا أتعرض للكلام فيه
من حيث المعانى الشعرية التى وقفت عليها منقولة إلى اللغة الفرنسية
عن جميع هذه اللغة وأقابل بينها وبين الشعر العربى من هذا

(١) النية : الوجه الذى ينويه المسافر

الجانب المعنوى فقط أى من حيث إبراز المعانى العقلية التى تدل على
مقدرة الشاعر ومنزلته من النبى والحكمة مع بيان شىء من قواعد
الشعر فى لغة الفرنسيين التى عنها أنقل كلما رأيت من شعر الجميع مثلاً
فيها بتمام معانيه ، وما أنكر أن نقل الشعر الى النثر وتصوير المعانى
الشعرية فى قوالب نثرية ولا سيما إذا كانت تلك القوالب من غير
اللغة التى وضعت فيها مما يحيط قدر النظم وينزل به عن رتبة البلاغة
التي كان يمتاز بها فى لسانه الأصيل ولكن الشعر الافرنجى قد يكون
واحداً تقريباً من هذا القبيل إذ أكثر اصطلاحاتهم الكلامية
وضروب تعابيرهم اللفظية قلما تتفاوت فى درجات البيان ووجوه
الإيضاح والتعبير لأنها كلها ترجع إلى أصل واحد وهو اللغة اللاتينية
التي هى أم لغاتهم جميعاً وعنها يشتق أكثر ألفاظهم ومسمياتهم
وطرق الإنشاء عندهم بحيث أنك لو نقلت كتاباً من الطليانية مثلاً
إلى الفرنسية لم تكسب تحتاج فى نقله إلى الزيادة على ترجمة الألفاظ
بأعيانها ومواضعها دون تغيير يذكر فى أسلوب العبارة أو تنسيق
مفرداتها على الوجه النحوى إذ النحوى فى كلتا اللغتين متقارب لا يكاد
يتباين إلا فى النادر وضروب البلاغة الإنشائية متشابهة لا يكاد
يختلف فيها الذوق عن الذوق إلا اختلافاً يسيراً فى مواضع لا تذكر
وبخلاف ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية فإن النقل

عنها مثل النقل إليها يستلزم تبديل العبارة كلها بجميع وضعها تقريباً
 وتقديم كثير من ألفاظها أو تأخيرها وربما أدى الأمر بالنقل إلى تغيير
 الأصل بحملته إلى معنى يقاربه لعدم اتفاق المعاني بين اللغتين وتباين
 أذواق أهلها في وجوه التعبير وأساليب المجاز وطرق الاستعارة مما
 يرجع إلى مألوف كل من الفريقين في حال الحضارة وهيئة الاجتماع
 ولذلك كان أكثر الأشعار الأفرنجية المنقولة إلى اللغة الفرنسية
 لا يفقد من جمال معانيه الشعرية شيئاً سوى ما كان عليه من طلاوة
 النظم ورويق القالب الشعري وكأن من وقف على تلك الأشعار
 منقولة إلى هذه اللغة كأنه وقف عليها في لغتها من حيث دقة المعاني
 وابتكارها ودرجة ناظمها في مقام الشاعرية وذلك لما قدمناه من
 اتفاق أكثر هذه اللغات في أصولها وقرب المشابهة بينها في بيان
 العواطف والوجدانات ولا سيما وأن أصحابها في نظمهم إنما يعولون
 على دقة المعاني وحقائق الأفكار أكثر مما يعتمدون على رشاقة
 اللفظ وزخرف الأساليب إذ لغاتهم أضيق من لغتنا كثيراً وقلها
 تختلف أنواع التعبير عندهم بالنسبة إلى اختلافها واستفاضتها عندنا
 بحيث أنهم لا يجدون لإبراز المعنى صيغة أو صيغتين إلا وجدنا له
 نحن عشر صيغ أو أكثر تنفن به في إبرازه وتختلف درجة الشاعرية
 عندنا باختلاف الإجادة والتقصير فيها وهي المزية التي امتازت بها

لغتنا العربية عن غيرها من سائر اللغات

ولا بأس قبل الدخول في هذه المقابلة التفصيلية بين أشعارنا وأشعارهم أن أورد للبطلان نبذة إجمالية عن أصل الشعر عندنا وعندهم ودرجات ارتقائه في سلم الكمال من حيث نشأته إلى هذا العهد وما تقلب عليه من أحوال المعاني وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب إذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم في مراقب تقدمها وحضارتها إلى الآن. وأبدأ من ذلك بما يقوله الإفرنج عن أصل الشعر عندهم وكيفية تدرجه ووصوله إليهم على سلسلة أول حلقاتها بدء الشعر في العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ما صار إليه على عهد شعرائهم في هذا العصر نقلاً عن فكتور هيكو أكبر شعراء الفرنسيين وأشهرهم في هذا الفن قال :

إن الهيئة الاجتماعية التي تعمر الأرض اليوم لم تكن هي نفسها التي كانت تعمرها من قبل بل إن المجتمع الإنساني قد نشأ ودرج وشب كما ينشأ الواحد من أفراد فكان صبياً ثم صار رجلاً ثم نحن الآن نشهد شيخوخته الكبرى . ولقد كان قبل الأوان الذي يسميه المعاصرون عهد الخرافات أو أن أقدم منه يسميه السلف العهد العتيق وأولى به أن يسمى عهد الأولين وبه تحصل عندنا ثلاثة عهود للمجتمع البشري من يوم نشأته إلى هذا العصر . ولما كان كل مجتمع له شعر

بخصوصه يمتاز به عن سواه فقد رأينا أن نبين هنا ما كان من المزية
الشعرية لكل عهد من هذه العهود الثلاثة التي هي أطوار الحياة
الاجتماعية من بدء نشوئها وهي عهد الأولين وعهد الخرافات والعهد
الحاضر وهو يشمل ما كان من الأعصر الوسطى إلى الآن

فلقد خلق الإنسان جديداً في العهد الأول وخلق الشعر معه
بالطبع إذ هو مفطورٌ عليه فكانت أشعاره الأناشيد والأغاني الروحية
طبقاً لما كان يرى حوله من عجائب الله وآياته ثم هو قد كان قريب
العهد بصنع الله له فكان شعره الصلاة والابتهال وكان لعود النظم عنده
ثلاثة أوتار لا يرنّ عليه سواها وهي الخالق والخليقة والنفس . ثم إن
الأرض كانت قفراً خالياً ينقسم سكانها إلى أسر لا إلى قبائل ويسمى
حكامها آباءً لا ملوكاً وكان العيش فيها على دعة وسعة ليس فيه اجتياز
أرض مخصوصة ولا شريعة ولا نزاع بل هو عيشة رعاة رُحْل هي
مهد كل حضارة ومدنية ولسكنها لم تكن في شيءٍ منهما على الإطلاق
وكان فكر المرء فيها كحياته أشبه بسحابة سارية تتغير أشكالها وتختلف
مجاريها باختلاف ما يهب عليها من الرياح وهذا هو الإنسان الأول
بل الشاعر الأول ويدعى عهده عهد الخليفة أو عهد الأولين

ثم تدرج العالم في مراقى فطرته السكالية فاتسع نطاق العمران
وامتدت حدود الاجتماع فصارت الأسرة قبيلةً والقبيلة أمةً وشعباً

والتف كل هذا المجموع على قطب واحد جعله مركز عمرانه فنشأت
من ذلك الإمارات والدول وقام المجتمع المدني مقام القبائل الراحلة
واختط المصر الواسع مكان الحلة الصغيرة وشيد القصر الرفيع مكان
الخيمة المضروبة وبنى الهيكل العظيم في موضع خيمة الاجتماع وبقى
أولئك الرؤوس رعاة ولكنهم صاروا رعاة شعوب بدل القطعان
واستبدلوا عصا الراعي بالصولجان . ثم ضاقت الأرض بسكانها
وشعوبها فصدم بعضهم بعضاً فكانت من ذلك الحروب والغارات
وكان الشعر مرآة لكل تلك الأمور تنعكس عنه وتلوح صورها فيه
فاتنقل بها من حد بيان الأفكار إلى حد وصف الحوادث وتصويرها
فاتنظم في سلمه تاريخ العصور والشعوب والدول وتدوين المواقع
والحروب والحكايات وخرج من كل ذلك هو ميروس الشاعر اليوناني
المشهور وفي قصائده وحدها صور تلك العصر كلها وبيان وقائعها
وحوادثها ووصف مشاهيرها وأبطالها وآلهتها طبقاً لما كان عليه
الشعر في ذلك الحين من الجمع بين الدين والدنيا وحقيقة التاريخ
وأوهام الخرافات

ثم دخل العالم بعد ذلك في حال جديدة هي النصرانية التي
درجت من مهد الشرق فكان الغرب مجتمع أنوارها وهدمت مباني
تلك الخرافات القديمة ووضعت أساس المدنية الصحيحة على آثارها

وأعلمت الإنسان أن له حياتين حياةً فانية وحياةً خالدة وأنه مثل حياته مؤلف من عنصرين حيوان ونطق ونفس وجسد وفصلت بين النسم والأجسام فصلاً بعيداً ووضعت بين الخالق والمخلوق فرقاً شاسعاً فارتقى بها عقل الإنسان من حال إلى حال وتحولت أخلاقه التي هي تلو عقائده من صيغة إلى صيغة أخرى وانتقل الشعر عنده من دائرة الوهم إلى حد الحقيقة ومن الخيال الخرافي الكاذب إلى المعنى الحسى الصحيح حتى بلغ ما هو عليه في هذا العصر اه

أما الشعر العربي فلم يكن في شيء من تاريخ الشعر الأفريقي في تباعد أطواره وشدة التباين في تنقله من حال إلى حال على ما بينه الكاتب الفرنسي فيما نقلناه من كلامه وإنما هو شعر منفرد في نفسه نشأ في بلاد العرب بخصوصها وأجراه الله على ألسنة العرب وحدثهم دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلاً كما أخذ الأفرنج شعرهم عن اليونان والرومان ومن قبلهما ولم يأخذ أحد عنهم كما أخذ عن غيرهم بل بقي منحصرأ فيهم تناولوه إرثاً عن الطبيعة في بداوتهم ولم يورثوه أحداً من غير قبائلهم والناطقين بلسانهم وجل ما كان من تقلب أطواره عندهم أنه لما انتقل إلى الحضرة أو لما انتقلت بداوة العرب إلى الحضارة المدنية لم يطرأ عليه سوى تغيير بزمته بتنقيح بعض ألفاظه وتخفيف السهل المأنوس منها وإطراح الكلم الوحشي الذي تأباه

رقة الحضارة وآداب اجتماعها وأما ما سوى ذلك من نسق نظمه وديباجة
 معانيه وطرأائق إنشائه وبيان المقاصد منه فإنه لم يكد يتغير في شيء منها
 إلا ما دعت إليه حالات الحضارة في بعض مصطلحاتها ومستحدث
 عاداتها بل هم لا يزالون على المجرى العربي القديم في وصف الديار
 والبكاء على الأطلال والتشبيب بالمحجوب وتقديم الغزل والنسيب
 بين أيدي ما يقصدونه من الأغراض ونظم الحكم والأمثال في أثناء
 ما يعرض لهم من صنوف الكلام ور بما خرجوا عن ذلك إلى ما أحدثته
 عندهم الحالة الحضارية من وصف الرياض والقصور ومجالس الشراب
 وأمثالها مما لم يكن معروفاً في الجاهلية أو كان مخصوصاً بالمترفين منهم
 عن اتفقت لهم مثل تلك الحالات . وبالجملة فهم قوم جرى الشعر على
 ألسنتهم كاملاً فيما نرويه عنهم إلا إذا كان قبل ذلك شيء لم يبلغنا
 مما لم ينقله لنا التاريخ وأول ما نطقوا به منه هذا النوع المعروف
 بالرجز وهو منزلة بين الشعر والنثر يلتزمون في كل بيت منه قافيتين
 فقط على نحو ما نراه في الشعر الأفرنجي ليومنا هذا ثم تطرقوا منه إلى
 سائر الأوزان يلتزمون فيها القافية الواحدة في جميع أبياتها . وكان
 شعرهم في أول أمره مقصوراً على حوادث أنفسهم والإبانة عما يُكنه
 الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية واقعة غرامية أو حماسية
 يبرزون المعاني الشعرية في ذلك كله كما تصور لهم نفوسهم مجردة

كل بيت من قافية واحدة

عن الاختلاق ودعوى غير الحقيقة وحكاية حوادث وهمية مما درج عليه المولدون بعد ذلك وإذا خرجوا إلى المدح لم يمدحوا الرجل إلا بما فيه ولم يذكروا من حسناته إلا ما صدر عنه فعلا كما أنهم إذا رثوا مفقوداً لم يرثوه إلا بما تتفجع به قلوبهم من الحزن عليه وبيان أخلاقه وصفاته كما نرى ذلك في قصائدهم الجاهلية والمخضمة كقصائد زهير في هـرم بن سنان وقصيدة كعب في مدح الرسول واستعطافه وأمثال ذلك فإنك لا تجد هناك اختلاقاً في المدح ولا تطرفاً في الإطراء ولا إفراطاً في الثناء إلا ما جرى على طريق الاعتدال ولم يخرج عن حد المقبول السائغ في الأفهام على غير ما صار إليه المدح بعد ذلك من الغلو الزائد وكثرة التشعب في إبراز المعاني الخيالية والصور الوهمية والخروج تارة إلى المحال حيث يجعل المادح ممدوحه حاكماً على الدهر ويضع في يديه أزيمة الأقدار ويقرب عليه تناول النجوم لو أرادها ويوصل حد حكمه إلى الشمس والبدر توسعاً في المعاني وتفنناً في إبرادها وتصويرها كأنهم لما انتقلوا من حالة البداوة الجاهلية التي هي البساطة والفطرة إلى حالة الحضارة التي هي سلم الارتقاء ومدرجة التأنيق في سعة العيش وترف النعمة ورأوا غير ما كانوا يألفونه من أبهة الملك وزينة الحضارة انتقلت معانيهم الشعرية أيضاً على هذا النسق تدرجاً معهم في مراقى المدنية وجعل الشاعر يزخرف معاني شعره كما يزخرف

منزله ويتفنن في إبراز مقاصده كما يتفنن في طعامه ولباسه ويرتقى بها في سلم الخيال الذي هو تلو الحقيقة كما ارتقى في سلم الحضارة التي هي رديف البداوة والفطرة إلى أن بلغ الشعر عندنا مبلغه المعروف لهذا العهد لم يتحول عن حقيقة أصله ونسق نظمه إلا هذا التحول النسبي

أما الفرق الفاصل بين الشعر عندنا وعندهم فعلى نوعين لفظي ومعنوي أما اللفظي فهو ما تعلق بالوزن والقافية فإن وزن الشعر عندهم يتألف من الأهجية اللفظية وهي كل نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف المد سواء كان ذلك الحرف وحده أو مقترنا بحرف صحيح ويسمّون هذه الأهجية في اصطلاحهم الشعري «أقداماً» وبها تنقسم أبحر الشعر عندهم على حسب أعدادها في البيت فيكون أطولها ما تركب من اثني عشر هجاء وهو ما يسمونه الوزن الإسكندري نسبة إلى الإسكندر وأقصرها من هجاء واحد فقط بحيث يسوغ للشاعر عندهم أن ينظم القطعة يكون أول أبياتها اثني عشر هجاء ثم ينزل فيها بالتدريج إلى أن يختتمها بهجاء واحد على ما يشبه بعض التواشيح الغنائية عندنا تقريباً. ولكن أكثر الأوزان شيوعاً بينهم هو الوزن الإسكندري ومنه أكثر قصائدهم ورواياتهم ولكن يشترط في البيت الذي يكون من هذا الوزن أن ينتهي كل شطر منه عند الهجاء السادس بحيث لا تنقطع الكلمة في وسطه إلى شطرين بخلاف

١- رصف في رصف
٢- رصف في رصف
٣- رصف في رصف
٤- رصف في رصف
٥- رصف في رصف
٦- رصف في رصف
٧- رصف في رصف
٨- رصف في رصف
٩- رصف في رصف
١٠- رصف في رصف

الفرق بين الشعر
اللفظي والمعنوي

الوزن الإسكندري
هو الذي يتألف من
اثني عشر هجاء

الشعر العربي الذي يجوز وصل الشطرين منه بكلمة واحدة وهو المعروف عندنا بالمدور . ولكنهم يخالفون العرب في هذا القيد بأنهم يصلون بين البيت الأول والثاني في المعنى واللفظ جميعاً بأن يجعلوا الفاعل قافية للبيت ويضعوا مفعوله في أول البيت التالي بحيث يضطر القارئ له أن لا يقف عند القافية بل يصلها بما بعدها في الإلقاء وهو المذهب الذي أنشأه فيكتور هيغو أخيراً وعليه أكثر شعرائهم اليوم وبخلاف ذلك العرب فإن هذا يعدّ عندهم من العيوب ولا يتسامحون بوقوع شيء منه في أشعارهم ولو وقع في كلام أخل شعرائهم كالنابغة الذبياني حيث يقول

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواقف صادقات شهدن لهم بصدق الود مني
ولا يخفى أن إقامة الوزن في الشعر الأفرنجي على عدد الأهجية مما يسهل نظمها كثيراً ويبيح للشاعر أن يقدم ويؤخر في ألفاظ البيت ما شاء ويضع في أثنائه اللفظة التي يريد ما لا يختل معه الوزن عكس الشعر العربي الذي يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيرها فيه قد يؤدي إلى اختلال الوزن بحملته أو ينقل البيت من بحر إلى بحر آخر كما هو معروف عند أرباب هذا الفن . وما يخالف الأفرنج فيه مخالفة لفظية مسألة القافية فإنها

عندهم لا تلزم الشاعر في أكثر من بيتين ولذلك كان شعرهم أشبه
بالأراجيز عندنا على ما قدمناه قريبا ولكن لهم فيها قيذاً آخر
لا وجود له عندنا وهو أنهم يقسمون القوافي إلى مؤنثة ومذكرة
ويقتضون أن تكون كل قوافي القصيدة مؤنثة فمذكرة على التوالي
بحيث لا يتوالى بيتان على قافية مذكرة أو مؤنثة ويريدون بالقافية
المؤنثة ما كانت محتومة بحرف علة وبالمذكرة ما كانت محتومة بحرف
صحيح فهم أبدأ يعاقبون بين هذه القوافي إلى ختام القصيدة

وإنما جعلوا أبيات شعرهم على قواف متعددة لأن لغتهم ضيقة
قليلة الألفاظ لا تتسع لالتزام قافية واحدة في القصيدة الطويلة على
خلاف الشعر العربي الذي له من اتساع لغته واستفاضة ألفاظها أكبر
نصير وأوفى مدد على تعدد قوافيه والتزام الحرف الواحد فيها ومن
الغريب أنهم مع توسعهم في القافية بكثرة تغييرها وعدم التزامها
وجواز تكرارها نجد أنهم أكثر الناس شكوى من صعوبتها وقلة الظفر
بالمحكم المتين منها حتى أن فولتير نفسه وهو من أكبر شعرائهم كان
يتظلم منها ويسمى النير الثقيل والظالم الشديد وأن شاعرهم بوالو لما
امتدح مولير الشاعر الروائي الشهير قال له « علمني يا مولير أين تجد
القافية » وما ننكر أن شعراء العرب يفتخرون بالقافية في شعرهم
ويتباهون بالوقوع على المحكم منها ويمدحون شاعرهم بأن القوافي

تنقاد له وأنه يضعها في أماكنها ولكن شتان بين من يفخر بالقافية وهو يلتزمها في كل أبيات قصيدته وبين من يفخر بها ويعدّها نيراً ثقيلاً وهو لا يلتزمها إلا في كل بيتين من أبياته

ثم إن عندهم خلا ذلك نوعاً من الشعر يسمونه « الشعر الأبيض » وهو الذي لا يلتزمون فيه قافية بل يرسلونه إرسالاً ولا يتقيدون فيه بغير الوزن وأكثر شيوع هذا النوع عند الإنكليز وعليه أغلب منظومات شاعرهم شكسبير أخذاً عن الشعر القديم . ومن اصطلاحهم في النظم أنهم يخالفون بين أبيات القصيدة في قوافيها بأن يفرقوا بين كل بيتين من قافية واحدة بيتين آخرين من قافية أخرى على ما يشبه نسق الموشحات الأندلسية عندنا إلا أنهم توسعوا في المقارنة بين الأوزان توسعاً زائداً حتى صاروا ينظمون المقطوع الواحد من الشعر على عدة أوزان مختلفة لا ينطبق مجموعها على الذوق السامع إذ بينما الأذن تسمع وزناً في بيت إذ بها قد انتقلت فجأة إلى وزن آخر ومنه إلى غيره دون أن تستقر على وزن معلوم وهو مما لا يوجد عندنا إلا في بعض الموشحات المذكورة التي لم يعد أحد ينسج على منوالها في هذه الأيام

هذا مجمل ما نبين الأفرنج فيه من حيث اصطلاح الشعر اللفظي ومقتضيات قواعده وأوضاعه وأما من الجهة المعنوية فأقول ما يخالفوننا

فيه أنهم يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاماً شديداً ويبعدون عن
المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً فلا تكاد تجد لهم غلوّاً ولا إغراقاً ولا
تشبيهاً بعيداً ولا استعارة خفية ولا خروجاً عن حد الجائز المقبول
من المعاني الشعرية في جميع وجوهها ومقاصدها فهم من هذا القبيل
أشبه بالعرب في جاهليتهم إذا مدحوا لم يبالغوا وإذا وصفوا لم يُغربوا
وإذا شبهوا لم يُبعدوا في التشبيه وإذا رثوا لم يتعدوا صفات المراثي
وأخلاقه في المعاني السهلة المقبولة على خلاف ما صار إليه شعر العرب
بعد الإسلام من الإغراق والغلوّ والمغالاة في الوصف إلى ما يفوت
حدّ التصوّر والإدراك مما أشرنا إليه في فاتحة هذا المقال . غير أننا
إذا خالفناهم في أكثر هذا الأمر فنحن معهم على اتفاق في بعض
أطرافه أي أنه يجوز عندنا كل ما يجوز عندهم من هذا النحو ولا يجوز
لديهم كل ما يجوز لدينا منه بحيث كنا جامعين شعرهم من هذا القبيل
وزائدین عليه ما انفردنا به دونهم من ذلك الاغراب وكنا نقدر أن
نقول « أعذب الشعراً كذبه وأحسنه أصدقه » وهم لا يقدر أن
يقولوا إلا أن أحسن الشعر أصدقه فقط . ومن وقف على ما في ديوان
الحماسة من شعر العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ووقف على شعر
الإفرنج اليوم رأى أن لا فرق بين الشعرين في بساطة المعاني وصدق
التشبيه وحقائق الوصف وعجب كيف يكون كمال الشعر عند الإفرنج

لا يبعدون عن
حدّ التصوّر

عندنا
أشبه بالعرب
في جاهليتهم

في عزّة مدنيّتهم وتمام حضارتهم مشابهاً لبدء نشأته عند العرب في
إبان جاهليّتهم وخشونة بداوتهم على أننا إذا شابهنا الأفرنج في شعر
جاهليّتنا من حيث البساطة والتزام الحقائق وبايناها كثيراً في شعرنا
الأخير من عهد المتنبي إلى اليوم من حيث الاغراب في المعاني والمغالات
في الوصف بما يخرج الكلام عن حد الحقيقة أحياناً أو يلبس الحقيقة
الصغيرة منه الثوب الطويل الضافي من المجاز والايهام حتى يكاد
ينكرها الخاطر وتبدو له على غير وجهها المعروف إلا أن ذلك لا يرد
في شعرنا إلا من بعض الوجوه المعدودة كالغزل والمديح وأشباههما
مما يوافق الخيال ويجري مع وهم النفس ويقصد به تصوير الوجدان
الخفي أكثر مما يقصد به تقرير الحقيقة الراهنة ولذلك تفنن فيه شعراء
العرب وتسبقوا إلى الصور الخيالية منه يصورونها في كل قالب
ويأتون بها من كل سبيل وقد آنسوا ميدان الخيال فسيحاً فجالوا
ووجدوا مجال القول ذا سعة فقالوا وساعدتهم أساليب اللغة واتساع
تراكيبها وبلاغة تعبيرها وجزالة ألفاظها ووفرة الاستعارات
والكسنيات فيها فأرسلوا أفراس قرائحهم مطلقة العنان وأجالوا أبصارهم
في سماء المعاني فاستنزلوا النجم من العنان. وأما ما سوى ذلك من تقرير
الوقائع وإيراد الحكم وضرب الأمثال وتصوير الحقائق ووصف المشاهد
فانهم لا يكادون يخرجون عن حد الطبيعة ولا يحميدون عن محجة الصدق

والقصد ولا ياتون إلا بما تلقوه البداة ويملية الجنان على اللسان فهم من
 هذا القبيل يشبهون الإفرنج وإن لم يشبههم الإفرنج من غير هذا القبيل .
 ثم إن اصطلاح الإفرنج أن لا يقدّموا شيئاً بين أيدي أغراضهم الشعرية
 بل يأتون بها اقتضاباً من غير تمهيد ولا مقدمة على خلاف ما يفعله
 أكثر شعراء العرب من تقديم الغزل والنسيب والحكم وأمثالها
 أمام ما يقصدون من المدح أو الرثاء إلى أن يخلصوا منها إليه إلا أن
 ذلك ليس بالأمر اللازم عندنا وكثيراً ما يأتي الشاعر بغرضه في
 مفتتح قصيدته دون توطئة ولا تمهيد . وما يخالفوننا فيه أنهم يتجافون
 عن الفخر في قصائدهم ولا يستعملون التمدح في كلامهم بل يعدونه
 عيباً ونقصاً بخلاف العرب الذين صبروا على هذا الأمر دهرًا
 طويلاً وجعلوا له في أشعارهم باباً خاصاً على أنه مع كونه مباحاً عند
 العرب فهو اليوم من المذاهب المرغوب عنها لما في طبيعة العصر
 من إباته إلا إذا دعت إليه ضرورة تدفع الشاعر إلى مثله في مقام
 النضال والمدافعة عن الأحساب

ومما فاق الإفرنج فيه في مقام الشعر وانفردوا به دوننا نظم
 الروايات التمثيلية واعتدادها من أول أبواب الشعر وأسمى درجاته
 وأشدّها دلالة على براعة الشاعر وحسن اختراعه وهم مصيرون
 في هذا الاعتقاد كل الإصابة لأن في نظم الرواية الشعرية من الدلالة

المقدمة

فاتنات باردة
 القليل

على الفضل والابداع أكثر مما في نظم الديوان من القصائد
والمقطعات إذ هي تقتضى حسن الاختراع في تأليف حكايتها وبراعة
النظم في وضع أبياتها ولطف التصور في بيان شعائر مثليها واختلاف
حالاتهم ودقة تبويب فصولها وتوثيق عقدتها ووصل بعضها ببعض
مما يستلزم روية طويلة وعارضة شديدة وقدرة فائقة في التصور
والنظم والتأليف على غير ما تقتضيه القصائد والمقاطع المستقلة التي
يقصد بها الناظم غرضاً واحداً فيأني به في أبيات معدودة لا يضطر
فيها إلى عقد حكاية ولا إلى تمثيل عواطف متعددة ولا إلى إقامة
نفسه في موقف كل شخص من أشخاص الرواية يتكلم بلسانه
وينطق عن شعوره ويضع في دوره التمثيل ما كان ينبغي أن يقوله
صاحب الدور الأصيل . وقد انتقل هذا الفن إلينا في هذه الأيام
واشتغل به جماعة منا نظموا فيه الروايات الشعرية وأخصهم المرحوم
المأسوف عليه الشيخ خليل اليازجي في روايته المروءة والوفاء إلا
أننا لم نبلغ فيه مبلغ الأفرنج بعد ولا وصلنا إلى ما وصلوا إليه من
درجة كماله وإتقانه

⑤

ومن الفرق بيننا وبينهم في نظم الشعر أننا نفوقهم في وصف
الشيء وهم يفوقوننا في وصف الحالة أي أننا إذا وصفنا الأسد أو الفرس
أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسنة أتينا في ذلك بأحسن مما

ياتون به وتوسعنا فيه توسعاً لا يقدرون هم على الاثيان بمثله . وإنهم
 إذا وصفوا حالة من قتال رجلين أو معركة جيشين أو مقابلة محبين
 أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاءوا في ذلك بأحسن مما نجى به
 وتوسعوا فيه بما لا يقدر أن يسبقهم اليه . ومثل ذلك أن المتنبي وصف
 الأسد بما لا يقدر إفرنجي على وصفه بمثله وهيكو وصف معركة
 وترلو بما لا يقدر شاعر عربي على الاثيان بنظيره فهم بذلك أقدر
 على تصوير الوقائع ونحن أقدر على تصوير الأعيان لأننا إذا وصفنا
 الشيء بلغنا من بيان صفاته إلى أدقها وأخفاها وتوصلنا من إدراك
 معانيه إلى أصغرها وأدناها حتى لا نبقى منه باقية ولا تفوتنا منه
 حقيقة وصف وهم إذا وصفوا حالة أو موقفاً توصلوا إلى أخفى
 دخائله وأبانوا عن أدق خفاياه وبسطوا لعين الفكر ما لا تكاد
 تبصره عن الحس من غوامضه وسرائره وذلك لأنهم يتبعون
 وجدانات النفس إلى أقصاها فلا يفوتون منها جليلاً ولا أدقيقاً
 وهي المزية التي يعتبرون الشعراء بها ونحن نشير إلى تلك الشعائر
 إشارة إجمال ونترك إلى القارئ تمام التصور والتفصيل

هذا ولو تتبعنا بيان كل فرق بيننا وبين الأفرنج من مثل البديع
 اللفظي والمعنوي مما لا وجود له عندهم والتفنن في إيراد المعاني على
 أساليب كثيرة مما انفردنا به دونهم وأوردنا على كل ذلك شاهدة
 (١٠ - مختارات)

من كلامنا وكلامهم لضايق بنا المجال وخرج بنا نطاق البحث إلى دائرة
أوسع من دائرة الموضوع تستغرق كتاباً بأسره ولكن الذي يؤخذ
من جملة ما أوردناه أنهم قوم امتازوا عنا بشيء وامتازنا عنهم بأشياء
وإننا قد جمعنا من شعرهم أحسنه ولم يجمعوا من شعرنا كذلك وهي
ولاشك مزية اللغة العربية التي اختصت بما لم تختص به لغة سواها
من غزارة مواد اللفظ ووفرة ضروب التعبير واتساع مذاهب
البيان حتى لقد سماها الأفرنج أنفسهم «أتم لغة في العالم» وكفى
بذلك بياناً لفضلها على سائر اللغات ودليل على فضل شعرها على
سائر الشعر والله أعلم

نقد ديوان شوقي (١)

«لمحمد بك المويحيى» (٢)

١

الانتقاد قائد الاجتهاد والاحسان ورائد الإجابة والانتقان

(١) * كتب هذا النمد في أعداد متفرقة من جريدة مصباح الشرق
فنشره علي حسب ترتيبه هناك وهو يتضمن نقد مقدمة الديوان وجزء
قليل من الديوان نفسه ثم انتطع النمد بعد ذلك والغرض من نشر هذه
الرسالة هنا الاتيان بمثال حسن من أدب الانتقاد ودقة النظر فيه وجمال
أسلوب كتابته أما ما وراء ذلك من صحة أوجه الانتقاد جميعها أو صحة

وهو للانسان بمنزلة الصيقل للصوارم والصيرف للدرهم . ولولا
النقد لما امتاز الصحيح من الفاسد . ولا تبين الحال من العاقل
ولما قيل للإنسان في كل عمل يعملُه أحسنت وأصبت ولوقف الناس
في سبيل الإحسان ولم يهتدوا إلى مواضع الخطأ ومواقع الزلل .
ولا يكون الإحسان ظاهراً متبلجاً والإتقان واضحاً متألقاً إلا عند
إطلاق الانتقاد وصدق القول وقد كان الرجل في إقبال دولة الفصاحة
وعز مقام الأدب إذا أنشأ رسالة أو نظم قصيدة عرضها على نقاد الكلام
فاستحسنوا منها الحسن ونهوه إلى القبيح فيحذف منها ما لم يرضوه
أو يرجع إلى تهذيبه وتنقيحه فترسخ فيه ملكة الإتقان ما تكرر عليه
الانتقاد حتى بلغ بكثير من الشعراء أنهم لم يكونوا يعرضوا قصائدهم
على ممدوحهم إلا بعد أن ينتقدها ويرضاها من كان مكلفاً على أبوابهم
بوظيفة الانتقاد من أساتذة الكلام وجهابذة البيان وهذا أبو تمام

بعضها دون بعض فهو مبحث آخر لا دخل له في موضوع الاختيار

(٢) «محمد بك المويلحي»

هو من أقدر كتاب هذا العصر على الكتابة في الأخلاق وانتقاد
العادات وله في الترسل ما لا يكاد يجاريه فيه مجار وأسلوبه في المتأخرين
أشبه شيء بأسلوب الجاحظ في المتقدمين ويمتاز في كتابته بالاعتماد في
كل ما يكتب على العلم الجرم والأدب الغزير والتاريخ الصحيح

وناهيك بعلو قدره في الشعر قد وفد على عبدالله بن طاهر بخراسان
فمدحه وكان عبدالله لا يجيز شاعراً إلا إذا رضىه أبو العميشل
وأبو سعيد الضرير وكانا على بابه لا انتقاد الشعر وكانا ربما أسقطا
القصيدة بحملتها إذا لم يرضهما البيت الواحد منها فتصدّهما أبو تمام
وأنشدتهما القصيدة التي أولها

هَنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبَهُ فَعَزَمًا فَقَدَمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبَهُ
فَلَمَّا سَمِعَا هَذَا الْإِبْتِدَاءَ أَسْقَطَاهَا فَسَأَلَهَا اسْتِثْمَامَ النَّظَرِ فَمَتَرَا بِقَوْلِهِ
وَرَكِبَ كَأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ عَرَّسُوا عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَاهِبَهُ
لَا مَرَّ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ صَدُورُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ عَوَاقِبُهُ
فَاسْتَحْسَنَّا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَأَيَّاتَا أُخْرَى مِنْهَا وَهِيَ:

وَقَلْقَلْ نَابِي مَنْ خِرَاسَانَ جَاشَهَا فَقُلْتَ اطْمَئِنِّي أَنْضِرِ الرُّوضَ عَازِبَهُ
إِلَى سَالِبِ الْجَبَارِ بِيضَةَ مَلِكِهِ وَآمَلُهُ غَادٍ عَلَيْهِ فَسَالِبَهُ
فَعَرَضْنَا الْقَصِيدَةَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَخَذَ لَهَا الْجَائِزَةَ عَلَيْهَا

كذلك كان انتقاد الشعر والأدب في ذلك العهد بهذه المنزلة
العالية من الاعتبار والاهتمام وبه راجت سوق الأدب وصفا
جوهر الشعر

ثم إنك إذا التفت إلى حال الغريبيين اليوم وجدت الانتقاد عندهم

أنفع الآلات لتقدم العلوم والفنون وارتقاء المخترعات والمبتدعات
فلا تخلو جريدة عندهم من عاملين موظفين أو ثلاثة أو أربعة لا يتقاد
ما يكون له قيمة من تأليف أو تصنيف أو ابتكار أو إبتداع حتى
إن المؤلف الذى لا ينتقد تأليفه منتقد منهم يعد نفسه ساقط المنزلة
بين أقرانه

ومن نكد الدنيا على الأدب فى مصر أن أرباب الجرائد فيها لم
يلتفتوا يوماً إلى هذا العمل النافع بل جعلوا ديدنهم التغالى وسوء
المبالغة فى مدح ما يظهر فى الوجود من رسالة كاتب أو قصيدة شاعر
أو تأليف مؤلف أو تعريب معرب بقطع النظر عما إذا كان
ما يمدحون أهلاً للمديح وجديراً بالثناء ونسوا أن هذه العادة ينتج
عنها أمران مذمومان. أحدهما أن مدح الرجل فى وجهه (وصفات
الجرائد مدح فى الوجه) أمر غير مرضى طالما نهى عنه الناهون.
وحذر منه المحذرون. قال عليه الصلاة والسلام «إذا مدحت أخاك
فى وجهه فكأنما أمررت على حلقة موسى رميضة»^(١). وقال صلى الله
عليه وسلم «لومشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيراً له من
أن يثنى عليه فى وجهه». وقال أيضاً لرجل مدح رجلاً فى وجهه :
«عقرت الرجل عقرك الله». ووجه الذم لهذا المدح أنه ينشأ عنه

إعجاب المرء بنفسه واغتراره بمنزلته فيرى كل شيء في نفسه حسناً
ويمتليء بالباطل اختيلاً ومُجَبَّأً . قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه
يسرنى أن أكون عند الناس مثلك في نفسك وأن أكون عند نفسي
مثلك عند الناس . فتمنى حقيقة ما يقتره ذلك الرجل ثم تمنى أن
يكون عارفاً بعيوب نفسه كما يعرف الناس عيوب ذلك المعجب
بنفسه . وقالت الحكماء . عُجِبَ المرء بنفسه أحد حساد عقله ومن
رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . ويزيد على ذلك أن الممدوح
يعتقد في نفسه الإحسان والإتقان والإصابة والإجادة فتعدهمته عن
العمل ويكتفى بالدرجة التي وصل إليها متظلاً بظلال ذلك المدح .
ومن كلام عمر رضى الله عنه « المدح هو الذبح » قالوا لأن المذبح
ينقطع عن الحركة والأعمال وكذلك الممدوح يفتر عن العمل ويقول
قد حصل في القلوب والنفوس ما أستغنى به عن الحركة والجدة . ومن
أمثال الخرائين « إذا صار لك صيت بين الحصادة فاكسر منجلك »
وثانى الأمرين المذمومين أن المدح على حسب العادة غش
للناس بمن لا يتكلفون تعب الفكر فيما إذا كان العمل يستحق المدح
أو لا يستحقه فيعتمدون على أقوال المديح ويغفلون عن قيمة الممدوح
في نفسه وكلا الأمرين تغير بالناس لا يخفى ما فيه من الضرر على
العلوم والآداب

ولما كان حضرة الشاعر الأديب أحمد بك شوقي عزيز المنزلة
عندنا نحب له التقدم في الأدب والترقى في أساليب البلاغة لما نأمنه
فيه من الذكاء وحسن الذوق والانطباع الفطرى على محبة الشعر وكنا
نتمنى له أن يكون شعره كله أولوا لا يخالطه حصى ، وذهباً خالصاً
لا يشوبه بهرج وكان الانتقاد كما قدمنا وكما يعلمه خير واسطة إلى
الإحسان والإتقان والإجادة والإصابة — لا بدع أن اخترنا معه
سلوك هذا السبيل سبيل الانتقاد على ديوانه الذى أهدى إلينا نسخة
منه عناية به واعترافاً بقدره ولم نفعل به ما فعله بغيره من المطبوعات
عما لا يستحق فى نظرنا الانتقاد فلا يكون له نصيب عندنا إلا السكوت
عليه . ونحن لانشك أن حضرة الشاعر الفاضل وهو العالم بمزية
الانتقاد فى الشرق والغرب لا بد أن يقبل ذلك منا أحسن قبول
ويتبع هذه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة «أمر مبيكاتك لا أمر
مضحكاتك»

٢

قيل لأفلاطون مالك تعارض سقراط فى أقواله وأنت تحبه ؟
قال أحب سقراط ولكنى أحب الحق أكثر منه : وعلى ذلك نبداً
فى ما بدا لنا الكلام عليه من ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقي
بك ونسأل الله أن نكون من الداخلين فى من استغفر الله لهم فى آخر

مقدمته بقوله : « وأنا أستغفر الله لي ولأهلي ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل

صدر الشاعر ديوانه بمقدمة طويلة تكلم فيها عن الشعر وعن نفسه . أما المقدمة من حيث صناعة الإنشاء ومن حيث اللغة فإنها تدل على أنه شاعر لاناثر وتدل على أنها كانت تحتاج إلى إعادة نظر للتنقيح والتصحيح ولو أنه كان يحسب للانتقاد حساباً ولم يعتمد على الإطراء والمدح وحده من أولئك الذين يدعون أن الانتقاد مما يثبط الهمة لكان تأملها بنفسه مرة بعد مرة أو كان عرضها على من ينتقدها له وثقة الإنسان بنفسه مجلبة للخطأ . فإذا نظرت في الصحيفة الأولى وحدها وجدته يقول فيها عن الشعر : « قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلاً » . والغازل هنا من قولك غزلت المرأة القطن والكتان وغيرهما من باب ضرب غزلاً مدته وقتله خيطانا ولا يكون امرؤ القيس « غازلاً » إلا إذا كان غزلاً أمراس الكتان في قوله

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يذبُل

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

إما إذا كان غرضه الغزل محرّكاً فلا يأتي اسم الفاعل منه غازلاً وإنما يقال رجل متغزل وغزل ككتف وغزِيل وقال في الصحيفة

نفسها عند كلامه على قصيدة أبي فراس
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
«ليست إلا عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه
تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية» وكان
الصواب أن يقول (سليقة العربي وملكة الشاعر) لأن الملكة لكل
الناس والسليقة للعربي خاصة قال بعض شعرائهم
ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى أقول فأعرب

وفي الصحيفة نفسها خطأ من حيث التاريخ إذ قال : أما بعد
فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم . وأمراء العرب
وأشرافهم كانوا بمعزل عن نظم الشعر وكانوا يأنفون من قوله
ويعدونه غير لائق بمقاماتهم ، وحكاية حجر مشهورة وهي أنه غضب
على ابنه امرئ القيس لما سمع أنه ينظم الشعر فأمر خادماً له أن
يذهب به ليقتله ويأتيه بعينه أماراً على قتله فرحم الخادم الغلام
فدسه في جبل ورجع إلى مولاه بعيني ظبي

وأما ما ينقل عن علي عليه السلام من تلك الأشعار فكذب عليه
هذا من حيث اللغة والتاريخ في صحيفة واحدة وأما من حيث
الكلام عن الشعر فإنك تراه في المقدمة مضطرباً متناقضاً فتارة يرفع
الشعر العربي إلى درجة عالية كقوله :

« وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة
في منظومه ويشرح حالة النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل
قوله من قصيدة

فلا هطلت على ولا بأرضى سحاب ليس تنتظم البلادا
وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس

معلتي بالوصل والمرت دونه إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر
ثم نظر إلى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ في إظهار رقة
النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس . وإلى الثاني كيف وضع
مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه
الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية علم أن شعراء العرب
حكما لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفهم تقرير المبادئ العالية
وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل
صور البيان »

وتارة ينزل بالشعر العربي إلى أدنى دركة فيقول :

« إني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم
ولا أجد أمانى غير دواوين للبوتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد
للأحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم في مصر لا يعرفون من
الشعر إلا ما كان مدحا في مقام عال »

ثم قال في موضع آخر عن الشعراء حتى عن آخر المتأخرين :
« وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في شعراء
الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ، ومتخذة
رسلاً في الهوى ووسائل ، وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها
وواصل بدائعها وحلاها ، وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول
وبكى ، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى ، وحسبك أنه لو اجتمع
ألف شاعر يعزّزهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثه
في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو »

ومن كان نظره في البهاء زهير ورأيه فيه هكذا كيف يكون رأيه
في فحول الشعراء كمسلم بن الوليد . وأبي تمام . والبحتري . وابن
الرومي والأرجاني . ثم هو بعد ذلك ينزل بالشعر العربي إلى أن يقول :
« ثم طلبت العلم في أوروبا فوجدت فيها نور السيل من أول يوم
وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه
وأنى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها وإذ كنت أعتقد
أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغى إبادتها كالأفعوان لا يطاق
لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح
من أوروبا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان »
ومعنى هذا أنه وجد نور السيل إلى الشعر العربي في أوروبا من

أول يوم وأنه وجد في مصر أوهاما كالشعبان لا يؤخذ إلا بالحيلة
فاحتال عليه بقصائده على الأسلوب العربي الجديد الأوربي لإبادة
تلك الأوهام التي تمكنت من الأمة العربية وهذا أغرب ما روى
لأن الشعر ألقاظ ومعان فالرجوع إلى العربية والأخذ عن أهلها
واجب من جهة الألقاظ . أما من جهة المعاني فقد طالعنا ما قدرنا
على مطالعته من شعر الغربيين فلم نجد لهم أطول باعا من الشرقيين في
المعاني بل الشرقيون يفوقونهم فيها وهم إلى الآن لا يزالون في المعاني
عيالا على اليونانيين والفرس والعرب ينتحلونها ويزينون بها أشعارهم
وأما من جهة المواضيع الشعرية والتغني بالطبيعة ووصف الكون
مما يشير إليه في مقدمته فهو يشهد نفسه . « أن شعراء العرب حكماء
لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفهم تقرير المبادئ العالية وأنهم
أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل بيان »
وقد قال شعراء الشرق ما قالوا في هذه الأبواب فما على الشاعر
الجديد إلا أن يتصفح دواوينهم فيجد فيها ضالته التي ينشدها فإن
رآهم قد فاتهم شيء أو أغفلوا بابا في الشعر لم يفتحوه فليقرعه
وليتحف به أهل زمانه والكون والطبيعة أمامه في كل زمان
ومكان وهو في غنى عن التطوح بالشعر إلى أرض أوربا ليستنير
بنور هداها ويحتذى الصراط المستقيم بها

هذا مارأيناه في القسم الأول من مقدمة الديوان وسنتيعه بما
تراه في القسم الثاني الذي خصصه الشاعر الفاضل للكلام عن نفسه
ونحن لا نشك في أنه يحمل كل كلامنا في هذا الباب على أحسن
محمل فما غرضنا إلا خدمته وخدمة الأدب معه وهو للأدب خير
مساعد ومعين

٣

من الأقوال المأثورة « أعوذ بالله من قوله أنا »
و« إذا أردت أن يثني عليك فلا تن على نفسك »

سلك الشاعر الفاضل في مقدمته في الكلام على نفسه مسلكا لم
تسلكه الشعراء من قبله في دواوينهم بل كانوا يتركون لغيرهم الكلام
عنهم وغاية مارأيناه من المؤلفين للكتب العربية أنهم إذا أرادوا
الكلام على أنفسهم فلا يتكلمون إلا عن أصولهم في الأدب لا عن
أصولهم في النسب فيذكر الواحد منهم بمن أخذ وعمن تلقى وعلى من
قرأ وماذا حفظ . أما الشاعر الفاضل فقد ذكر لنفسه أصولا أربعة في
النسب ولم يذكر له أصلا واحدا في الأدب إذ قال : « أنا إذا عربي
تركي . يوناني . جر كسي بجدي لأبي . أصول أربعة : في فرع مجتمعة »

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وكل من قرأ كلامه في مقدمته يراه يدور على أربعة أشياء :

الزهو . والسهو . والحشو . وسلامة النية

فمن قوله في الزهو « معذرتي إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جد بهم الحرص عليها . وللآخرين أقول إني لا أزال في أول النشأة وإن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكني لأثق بيومي الآتي وأخاف بعدي رجوم الظن وضلات الأحاديث هذا هو الزهو المضاعف . وصور الملوك كما لا يخفاه في أيدي الناس وصور العلماء والشعراء في هذا العصر في صدور كتبهم ودواوينهم . وتكهنه بحرص الناس على صورته بعد موته من ذلك الزهو أيضا

ومن قوله في هذا الباب في ذكر جده وجدته (حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوى اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشا لإحسانا) وقوله حاكيا عن نفسه في المدرسة التجهيزية (فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة وأنا فى الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لى من النظارة على المجانية بوجه الاستثناء لآعن حاجة إليها)

ومن الزهو أيضا قوله (أخذتني جدتي لأمي من المهدي وهي التي
أرثتها في هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتني لو الذي وكانت
تحنو عليّ فوق حنوهما وترى لي مخايل في البرّ مرجوة . حدثتني
أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا في الثالثة من عمري وكان
بصري لا ينزل من السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوي بدرة
من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب
أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدته اصنعي معه مثل هذا فإنه لا يلبث
أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من
صيدلتك يا ولای . قال جيئ به إليّ متى شئت إني آخر من ينثر
الذهب في مصر)

من كان طبيب عينيه اسماعيل وصيدليته خزائن مصر وهو في
الثالثة من عمره لا بدع إذا كان الزهو ترب صباه ورفيق حياته
وختام باب الزهو قوله عند الكلام على وفاة أبيه . كانت وفاة
والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه
شيئاً كثيراً من مشتت منظومي ومنشوري مانشر منها وما لم ينشر قد
كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد
المرحوم وقد لفة في ورقة كتبت عليها هذه العبارة : هذا ما تيسر
لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا فمكنت

كأنى أراه : وأنى أمره أن يجعّمه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى
من يعتنى بشؤونه وربما لا يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب
على هذا فالشاعر فى رأى أبيه خاتم الشعراء والأدباء

ومن باب السهو عن حسن التعبير قوله عن أبيه فى مناقب جده
« ثم تداولت الأيام . وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلد المراتب
العالية . ويتقلب فى المناصب السامية . إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا
للكمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها
أبى فى (سكرة الشباب) ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت
فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراى فى ضيق
حتى أندب تلك السعة فكانه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن
لا أقتات من فضلات الموتى »

سكرة الشباب بازاء ضياع المال من والده سهو عن حسن التعبير
كان يحل أدبه عنه وتعبيره عن الإرث بفضلات الموتى سهو أيضا
عن حسن التعبير يعز سماعه على الوارثين لأن الارث رزق من
أطهر الأرزاق منذ خلق الله آدم فلا يقال لغنى ورث مالا ولا للملك
ورث ملكا أنه يقتات من فضلات الموتى

ومن هذا الباب قوله عند ذكر جده وجدته « وكان الحديوى
المشار إليه (اسماعيل) يقول عنهما لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته

ولو لم يسمه أبى حلياً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته »

السهو في التعبير هنا لا يقتصر للأديب . سأل أحد الأمراء أديباً فقال أينأ أ كبر فقال له الأديب حضرت زفاف أمك المباركة على أبيك الطيب . هنا تحرز الشاعر من خطابه بأنا أ كبر منك أولاً وتحرز ثانياً فلم يقل أمك الطيبة بل هرب منها إلى ما هو أليق بالأدب

ومن باب السهو في التعبير قوله عن المغفور له توفيق باشا « فتحلى الحليم بصورة الغضب » وليس الغضب حلية يتحلى بها . ومنه قوله عند تبشير المرحوم توفيق باشا له بتعيين أبيه مفتشاً في الخاصة الخديوية والوعد بتعيينه هر أيضاً « ثم مد إلى العزيز يده فقبلتها واجما وقد غلب على السرور حتى أنساني الشعر وكان ذلك وقته »

التعبير بالواجم هنا في غير موضعه تقول وجم الرجل وجوماً سكت على غيظ وقيل سكت وعجز عن التكلم من كثرة الغم والخوف والواجم العبوس المطرق لشدة الحزن يقال مالى أراك واقفا واجما وهو واجم ودمعه ساجم

ومن باب سلامة النية ما يحكيه عن المرحوم الشيخ علي الليثي من قصة المنام والخرق في الإسلام قال « حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ علي الليثي قال لقيت أباك وأنت حمل لم توضع بعد فقص علي حمارآه في نومه فقلت له وأنا أما زح ليولدن لك ولد

يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام ثم اتفق أنى عدت الشيخ في
مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي
يقول هذا تأويل رؤيا أيلك يا شوقي فوالله ما قالها قبل في الإسلام
أحد قلت وما تلك يا مولاي قال قصيدتك في وصف (البال) التي
تقول في مطلعها

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

وكل من عرف المرحوم الشيخ على الليثي وما كان عليه من
الميل إلى إرسال النكات المستظرفة أدرك لأول وهلة موضع النكتة في
مسألة الخرق في هذه القصيدة المتفرجة ولو كان غرضه غير التنكيت
لقال (لم يقل مثلها الشعراء) ولم يقل (لم يقل أحد في الإسلام)
فحملها الشاعر الفاضل بسلامة نيته محمل التقريظ والإطراء

ومما يدخل في هذا الباب ما نقله عن المرحوم الشيخ على الليثي
أيضاً عند تكلمه على اختلال أعصاب بصره (وكان المرحوم الشيخ
على الليثي كلما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للهندي - محاجر
مسك ركبت فوق زئبق -)

وأما الحشو في كلامه فنذكر منه شيئاً يدل عليه فمن ذلك قوله
عند ذكر استدعاء المرحوم توفيق باشا له من ساحة عابدين «فخرجت
قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي»

ومن قوله عند الكلام عن دراسته في باريس «أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت قاستخدمت ممرضة تسهر عليّ وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول: أفى مثل هذا الشباب تذهبون ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومنّ عليّ بالشفاء»

ومن أمثال هذا الحشو كثير مما لا ينتفع به القارئ ولا يستفيد منه السامع ويضيق بنا المقام عن سرده . وقد آن لنا أن ننتهي من نقد المقدمة ونبتدئ بنقد الشعر وموعدنا الأعداد الآتية

٤

اختلفت عادة الانتقاد للكتب عن الناس وألقت أذهانهم التقرير مدحا وإطراءً فصار الانتقاد مهجورا بينهم غريباً فيهم حتى ظنوه ذاماً وحسبوه عاباً ولما وضعنا ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك موضع العناية والاهتمام به وشرعنا في انتقاده قياماً بخدمة الأدب على عادة الجرائد الغربية في هذا الباب وهم الناس في أننا قصدنا ذلك من وجه التحامل ولقد أخطأوا في وهمهم فإن صحبتنا مع هذا صاحب الفاضل لم تزل على ما كانت عليه من الصفاء ولم يؤثر عليها الانتقاد شيئاً لعلمه ولعلمنا بأن الانتقاد دائر على ما قيل لا على من قال ولذلك استغربنا قيام من قام للرد علينا مستتر الاسم تحت الألف

والراء وكردنا نسيء الظن بصاحبنا وهممنا بالرد عليه لولا أن جمعنا وإياه مجلس فسألناه عن ذلك الكاتب فتبين لنا منه أنه لم يكن يعرفه وأنه لا يقول بقوله وأن ما كتبه كان على غير علم منه وأنه لا يزال يقدر الانتقاد قدره ويحمله على حسن الاهتمام بديوانه فمن أجل هذا عدلنا عن النقد على الرد وطرحناه في جانب المسامحة والإغضاء كما جرت عليه عادتنا مع من يتهافت علينا ويتجرش بنا لأننا لا نرى في الكلام معه من فائدة للقراء بل نجد من الحكمة أن نمر بلغوه مرة الكرام تأدبا بأدب القرآن الكريم في قوله عز وجل (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

والآن نأخذ في نقد الشعر سائلين حضرة الشاعر الفاضل أن يكون دائم الاعتقاد في محض نصحناء وصفاء مودة تناوأن لا يحمل شيئاً من كلامنا محمل السوء وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه (لا تظنن بكلمة تخرج من فم أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً) قال حضرة الشاعر الفاضل في أول الديوان من باب (الأدب والمدح) خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرنهن الشناء

قوله خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء لأن الخداع لا يكون بالحقيقة وإذا أردت أن تخدع الشوهاء فقل لها حسناء وهو ينافي قوله في البيت الثاني

ماتراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماء
وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا تعلمه
ويعجبنا من هذه القصيدة قوله :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا تهادي من الهوى مانشاء
وعلينا من العفاف رقيب تعبت في مراسه الأهواء
جاذبتني ثوبى العصى وقالت أتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله في خداع العذارى فالعذارى قلوبهن هواء
وهذا من يديع الكلام وجيد الشعر

ومما نعهده من محاسنه ونراه من المعاني المبتكرة

سعت لك صورتي وأتاك شخصي وسار الظل نحوك والجهات
لأن الروح عندك وهى أصل وحيث الأصل تسعى الملحقات
وهبها صورة من غير روح أليس من القبول لها حياة
ومما نعيه عليه قوله من أبيات

وقطعة خد بينما هى جنة لعينيك يارأى إذا هى نار
لأن القطعة بغير الخد أنسب ولو قال صفحة خد لكان التعبير
أحسن وأجمل

أما بقية الأبيات فهى من رائق الشعر ورقيقه وهى :

إذا برزت ود النهار قميصها يُغير به شمس الضحى قنغار

وإن نهضت المشى ودقوامها نساء طوال حولها وقصار
لها ميسم عاش العقيق لأجله وعاشت لآل في العقيق صغار
وبما ينتقد عليه قوله في أبيات

وكل ذي همّة شريف يقوم للخلق بالخدامه
لأن لفظة «خدامه» ليست من اللغة العربية في شيء

٥

قال حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك من قصيدة في باب الوصف
من ديوانه يصف ليلة راقصة في سراي عابدين

أقبلت شمس ضحى ماهر منتقب
الظلام رايتها وهي جيشه اللجب

تشبيه الظلام بالراية لهذا الجيش اللطيف جيش شمس الضحى
لامناسبة له إلا إذا أراد أن يشبهه بجيش خراساني يقوده أبو مسلم
تحت الراية السوداء والعجب لهذه الشموس المسفرة التي ليس لها
منتقب كيف أنها لم تمزق هذه الراية .

وقال منها في وصف العزيز :

فهو بينهم عمر والوفود تنتدب

تشبيه العزيز بعمر رضى الله تعالى عنه في هذا المجلس مجلس
الطرب والعزف والرقص والقصف والقنود والحدود والصدور

والنهود والنحور والعقود غير لائق بالمقام إلا إذا أراد الشاعر بعمر
عمر بن أبي ربيعة

وقال منها :

فهى آنة صعد وهى آنة صلب
لا يقال فى اللغة « آنة » بل يقال « آونة » وهى جمع « الأوان »
أو الوقت والحين يقال هو يفعل ذلك آونة وأنا آتية آونة بعد آونة
ومن قوله بعد أن وصف المائدة « البوفيه »

والطعام حاضره والمزيد منتهب
بارد ومن عجب يشتهى ويطلب
كذا البيت وليس من العجب أن يشتهى البارد ويطلب
وقال منها :

والخصور واهية بالبنان تنجذب
سالت الألف بها فهى أغصن نهب
الغصن لا يجمع فى اللغة إلا على غصون وغصنة وأغصان ومطلع
هذه القصيدة من المطالع البديعة وهو :

حف كأسها الحبيب فهى فضة ذهب
ومن محاسنه فيها قوله فى الخمر :
راحة النفوس وهل عند راحة تعب

يأنديم خف بها لا كبا بك الطرب
ومن المحاسن أيضاً قوله :

تنجلي ولى خلق ينجلي وينسكب
ومنها فى وصف « السراى » :

أشرقت نوافذه فهى منظر عجب
واستنار رفرفه والسجوف والحجب
تعجب العيون له كيف تسكن الشهب

البيان

« لأحد الأدباء المعاصرين »

قال لى أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم إنى لتأتينى أحياناً رِقَاع
الاستعطاف فأكاد أُهمُّها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة
لولا أن الله تعالى يلهمنى نيات كاتبها وأين يذهبون . ولولا ذلك
لكنت من الظالمين

ذلك ما يراه القارئ فى أكثر المخطوطات التى يخطها كاتبوها
فى رسائل الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة
هزلٌ فى موضع الجذ . وجد فى موضع الهزل . وإسهاب فى مكان
الإيجاز . وإيجاز فى مكان الإسهاب . وجهلٌ بفرق ما بين العتاب

والتأنيب والانتقام والتأديب. والاستعطاف والاستخفاف. وقصور
عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء. والعلماء
والجهلاء. حتى أن الكاتب يُقيم في الشوكة يُشاكها. مناحة
لا يقيمها في الفاجعة يُفجع بها. ويكتب في الحوادث الصغار. ما يكبر
أن يكتب مثله في الحوادث الكبار. ويخاطب صديقه بما يخاطب به
عدوه، ويناجي أجيره. بمثل ما يناجي به أميره

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متفرقة واختلفوا في شأنه
اختلافاً كثيراً ولا أدري علام يختلفون : وإلى أين يذهبون
وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه وجوهها .
ولا تشعب مسالكها

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس وتصويره في
نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ولا يقصر
عنه . فان عقلت به آفة من تينك الآفتين فهو العي والحصر

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر
الأساليب فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها في حلوقها حشواً
يقبض أوداجها ويحبس عليها أنفاسها . فإذا قُدر لك أن تقرأها
وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا . وفؤادًا جلدًا . وجنانًا يحتمل
ما حُمّل عليه من آفات الدهور ورزاياه . قرأت متناً مشوشاً من

متون اللغة . أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات
وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول والتبسط في الحديث
واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع . فلا يزالون يجترّون
بالكلمة اجترار الناقة بجرتها^(١) ويتلهّظون بها تلهّظ الشفاه بريقها
حتى تسفل وتتبدّل وحتى ما تكاد تُسبغها الحلوq ولا تطرف عليها
العيون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولقد يخيل لي أن أكثر الكتاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم
أكثر مما يكتبون للناس وإن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية
التي تتلجج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحدة فاني
لا أكاد أرى بينهم من يحسن أن يمنع فسه على أذن السامع وضعاً
محكما فينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه وهو اجس نفسه
البيان صلة بين متكلم يفهم وسامع يفهم . فبمقدار تلك الصلة
من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط فإن
أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك واحرص
الحرص كله على ألا يخذلك عنها خادع فتسقط مع الساقطين
ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب
اللغة العربية . ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً

قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم ومدحهم
وهجوهم . ومخاوراتهم ومساجلاتهم . وقبل أن يعرف كيف كانوا
يعاتبون ويؤنبون . ويعظون وينصحون . ويتغزلون وينسبون
ويستعطفون ويسترحمون : وبأى لغة يحاول أن يكتب كتابته إن لم
يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفق
مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي
والهمداني والخازمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ثم أقرأ
ما خطه هؤلاء الكاتبة في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعربه
المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها مسبلة ستورها إلى جو
يسيل قرأ وصرأ . ويترقق ثلجاً وبرداً

ذلك لأنى أقرأ لغة لاهى بالعربية فأغبط بها ولاهى بالعامية
فأفكها بأحاضها ومجونها

رأيت أكثر الكاتبة في هذا العصر بين اثنين . إما رجل يستمد
روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات
الحديثة والروايات المترجمة . وربما كان كتاب تلك المخطوطات
أحوج إلى الاستمداد من قارئها . فإذا علق بنفسه تلك الملكة
الصحافية ألقى بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها فيدلى به

آخذها كذلك إلى غيره أسجع صورة وأكثر تشويها . وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كثر الغداة ومَرَّ العشي . وإما طالبُ قُصارى ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسْمها وإملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤلفاتها ومختلفاتها وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها . أما روحها وجوهرها فإن أكثر أساتذة البيان علماء غير أدباء . وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى له بسرها ويفضى إليه بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان . فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدة إلا من أستاذ كملت أخلاقه وحسنت آدابه كذلك طالب البيان لا يستفيدة إلا من أستاذ مُبين

ولا يُقَدِّفَنَ في رُوع القارئ أنى أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أنى أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان فما هذا أردت ولا إليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين . وخمسة من الشعراء البارعين . قليلٌ في بلد يقولون عنه إنه مهد اللغة العربية ومرعاها الخصب

وبعد فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سيلا إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منشورها ومنظومها والوقوف بها وقوف

المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج، فإذا رأيت أنك قد شغفت
بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها وأن قد لَذَّ لك منها مايلذُّ
للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام فاعلم أنك قد أخذت من
البيان بنصيب فامض لشأنك ولا تلو على شيء مما وراءك حتى تبلغ
من طلبتك ما تريد

ولا تحدثك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشئات العربية
لأسلوب تسترقه أو تتركيب تختلسه فإني لأحب أن تكون سارقاً
ولا مختلساً . على أنك إن ذهبت إلى ما ظننت أني أذهب اليه في
نصيحتك لم يكن دركك دركا . ولا بيانك بياناً . وكان كل ما
أفدته (١) من ذلك أن تخرج للناس من البيان صورة مشوّهة لا تناسب
بين أجزائها . وبردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها . وإنما أريد أن
تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة
واحدة حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذكراهم
بطائفة من منشور العرب ومنظومهم فقتنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا
من اللغة ما أرادوا . فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن
شيء من هواجس نفوسهم رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا عن
دفائنهم فإن وجدوا بينها ما يدل على المعنى الذي يريدونه انتزعوه من

مكانه انتزاعا وحشروه في كتابتهم حشرا. وإلا فإما أن يتبدلوا
باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو يهجروا تلك المعاني إلى
أخرى لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولا حقاتها. فهم لا بد لهم من إحدى
السوءتين. إما فساد المعاني واضطرابها. أو هجنة التراكيب وبشاعتها
فاحرص الحرص كله على ألا تكون واحدا منهم. واحذر أن
تصدق ما يقولونه في تلبس العذر لأنفسهم عن ذلك من أن اللغة
العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة. وأنهم ما لجئوا
إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها. فاللغة العربية
أرحب صدراً من أن تضيق بهذه البسائط من المعاني بعدما وسعت
من دقائق العلوم مالا قبل لغيرها باحتماله وقدرت من هو اجس
الصدور وأحاديث النفوس وضمائر السرائر على الذي عيت به
اللغات القادرات

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها وإنما الشأن في عجز المشتغلين
بها عن الاضطراب في أرجائها والتغلغل في طياتها. واقتناعهم من
بحرها بهذه البلة التي لا تلج صدراً. ولا تشفى أواما
وكل ما يؤخذ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على إعلام لهذه
الهنات المستحدثة وهو في مذهبي أقل الذنوب جرماً وأضعفها شأناً
مأدماً نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل

إليه أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق . فالأمر أهون
من أن نحار فيه وأصغر من أن نقضى أعمارنا في الوقوف ببابه
والأخذ والرد في شأنه والمساجلة والمناظرة في اختيار أقرب الطرق
إليه وأجداها عليه

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من
المنشآت العربية فليس كل متقدم ينفعك . ولا كل متأخر يضرك
ولا أحسبك إلا واقفا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة
والاضطراب . لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال .
وتقطع دونها أعناق الرجال . فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين
تعرف ويعرف الناس لهم ذوقا سليما . وقريحة صافية . وملكة في
الأدب . كأنها مصفاة الذهب . فإن فعلت وكنيت ممن وهبهم الله
ذكاءً وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي فيها من البذور
الطيبة عدت وبين جنيتك ملكة في البيان راسخة يتناثر منها منشور
الأدب ومنظومه تنثر الورود والأنوار . من حديقة الأزهار

الموازنة بين الشعراء

«للشيخ محمد المهدي» (١)

قد رأيت السواد الأعظم من المفضلين متسرعاً في الحكم جائراً
فقد يحكم للشاعر بالسبق وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين
مما استُجيد من كلامه وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذي
رآه من كلامه كان دون الذي رأى من كلام السابق ولو اطلع
على كل مقال الشاعران وعلى أسباب قولهما وقارن بين معانيهما
المتحدة الموضوع وأساليبهما ومقدار تأثرهما بالحوادث التي قالا
فيهما الشعر وحاذى البديهة بالبديهة والروية بالروية لعدل عن حكمه
ولما أطلق القول في التفضيل بل قال فلان أشعر في قصيدة كذا
ومعنى كذا والآخر أجود في كيت من جهة المادني أو الديباجة
أو حسن التصوير ولا يسوغ له أن يحكم على الإطلاق إلا بعد أن يستقرى
المحاسن والمساوى ويقارن بين ما لكل من الشعارين منهما حتى

(١) «الشيخ محمد المهدي»

هو أحد علماء اللغة العربية في هذا العصر وكبير من كبار أدبائها وفرد
من أفراد مؤرخيها ويمتاز بحسن الذوق ودقة النظر في الانتقاد وهو وإن
كان لا يكتب إلا قليلاً فإنه ينسب الفضل في تخريج كثير من كتاب هذا
العصر وتقويم ملكاتهم وتهذيب أذواقهم

إذا ما وجد أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنوناً وأحضر
بديهة وأقل سقطاً وأكثر غوصاً على المعاني وأجمل أخذاً وأوفر مادة
حكم له على الآخر حكماً يؤيده الدليل الصحيح والذوق السليم
لا يحكم كثير من المفضلين الفضوليين . ومنهم جماعة من النحاة
عرضوا قوانينهم على بعض الشعراء الذائع كشعر النابغة فلم يتفق مع
بعضها فغضوا من فضلة ونسوا أن قواعدهم محكومة بشعره لا حاكمة
عليه ومنهم آخرون حملتهم المعاصرة والمنافسة على الخط من شعر
أقرانهم وقد قلدهم في ذلك بعض المؤلفين نخاضوا في أقدارهم وهم
لا يشعرون وقد ينتقد الحضري البدوي فيعييه لاختلاف الذوقين
وربما كان البدوي في باديته أشعر من الحضري في حضارته

ولا بد أن يكون الوازن من أهل الذوق الصحيح والاطلاع
الواسع محيطاً بكل ما قاله الشاعران بعيداً عن الهوى والتقليد دقيق
النظر في المقابلة بين المعاني والألفاظ فيقارن المفردات والأساليب
والمعاني المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع
والأخذ والابتداع وأن يذكر تعليل كل تحسين أو تقبيح بما يقنع
حتى يرسم للنظر ما يهيء له الحكم فلا يسعه قبل أن يأتي على آخر
الموازنة إلا النطق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر
ابن يحيى الأمدى في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى فإنه

قال لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين
قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية
وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى
ثم احكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علما بالجيد
والردى ثم ذكر مساوى الشاعرين فسررد سرقات أبى تمام وإحالاته
وغلظه وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنيسه واضطراب وزنه ثم
ذكر ما وجدته من ذلك للبحترى وقارن بين ما افتتح به القول من
الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك
ونبه على الجيد وفضله على الردى وبين علل ذلك ثم قال وبقي ما لم يمكن
إخراجه إلى البيان وهو ما لا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل
بالفارسين والجاريين تتساويان فى كل شيء من الصفات الحسنة ومع
هذا يفضل إحداهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك
ثم ذكر ميزان الموازنة لمن لم يكن من أصحاب الذوق السليم فحقه
النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على النابغة
الجعدي مثلا فان عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا
فحسبه أن يكون مع الجمهور

أما فائدة المقارنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة النقد وكشف
القناع عن المحاسن لتحذير والمقابح لتجنب وكما أن اللسان لا يمرن

على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ولا يحول في ميدان فسيح من المعاني ولا يقدر الأشياء قدرها إلا بالمقارنات التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه لما بقي كثير منا مضطربا اضطرابهم في مقادير الشعراء

ضرورة التعريب

«للشيخ محمد الخضري» (١) شرح في رار العلم

يقولون إن الحق في التعريب إنما كان لأمة سلفت وبادت فلم يبق لها من أثر وإن ما كان يباح للأعراب في بواديهم على قلة حاجتهم لا يباح مثله لنا في القرون المتأخرة على كثرة الحاج وهذا كله بنوه على قاعدة لا أساس لها وهي تشبيه اللغة بالدين في التمام فكما أن الله

(١) «الشيخ محمد الخضري»

شيخ من جلة شيوخ العصر وعالم من أكبر العلماء بالشرعة والتاريخ والأدب وكاتب من أفراد الكتاب معروف بالمتانة والدقة وجمال الأسلوب وقوة الحججة ويمتاز باستنارة ذهنه ووجهه للإصلاح وبغضه للجمود على كل قديم في العلم أو الدين وله في الاجتماعيات والمباحث الدينية من الرسائل ما يسمو به إلى منزلة المصلحين

سبحاته أتم دينه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فكذلك
العرب قد أتمت وضع لغتها ولم يبقَ من بعدهم من يحق له أن يضيف
إليها كلمة جديدة كما أنه ليس لمسلم أن يضيف على دينه حكماً جديداً
لكن الفرق بين الأمرين ظاهر فإن الدين وضع إلهي شرعه من
له حق التشريع والإلزام وهو الله سبحانه وتعالى وأتم وضعه على
قواعد راسخة وأساس ثابت فلم يبقَ لأحد مجال أن يزيد على هذه
القواعد أو ينقص منها أما اللغة فالمقصد منها الإبانة والإفصاح وهي
من وضع الأفراد تتجدد بتجدد الحاجات

وليس من قصدي أن أبحث الآن في أمر اللغات أهي توقيفية
أم وضعية فإن ذلك مما فرغ منه العلماء وانتهى بهم البحث إلى الرأي
الثاني حتى أن كثيراً من أصحاب الرأي الأول قالوا إن المراد بما
وضع أولاً هو الكلمات التي تدل على مثل السماء والأرض والهواء
مما هو موجود منذ وجد الإنسان أما ادعاء أن الألفاظ الدالة على
المخترعات والمحدثات مما علمه الإنسان الأول آدم صلوات الله عليه
فهو مكابرة للحسوس

ومتى ثبت أنها تتجدد بتجدد الحاجة فالمحتاج من المتمسكين بها متى
علم أصولها ولهجتها له حق التعريب بالضرورة كما كان هذا الحق لسلفه
ولا أدري ما الفرق بين من علم اللغة تلقيناً من أبيه وأمه وبين

من علمها من معلم غيرهما واعتادها بعد ذلك في كلامه وكتابه حتى
صارت له ملكة بحيث يمكنه أن يقف ساعة فيخطب بها من غير أن
يحيد عن طريقها ويكتب كتاباً صحيحاً يقرأ في ساعات أو أيام
إن الذين يخالفونني في الرأي ويقولون بالتوسع في استعمال المفردات
لا ينجون من تغيير الأوضاع والدلالات العربية

هم بلا شك يتفقون معي أن حق التغيير للحاجة ثابت لنا ومتى
اتفقنا على نيل هذا الحق لم يبق إلا التخير بين سهل وأسهل ومفيد
وتام الإفادة . ولا مرء في أن اللفظ الذي وضعه واضعه للدلالة على
شيء اخترعه أسهل في الدلالة وأتم في الإفادة لأنه وضع بأزائه تماماً
كما وضع لفظ الإبريق بأزاء تلك الأداة التي نعرفها بخلاف الكلمة
التي تنصيدها من موات اللغة فإنها إما أن تكون موضوعة لشيء هو
أعم فنخصصها ويلزمنا إيجاد القرينة للدلالة على ما نريد فنحتاج إلى
لفظ وقرينة وإما أن تكون مستعملة في شيء فيه مجرد مشابهة كما بين
الأوتوميل والسيارة فنحتاج لاستعمال لفظ واحد للدلالة على معنيين
أو معان كثيرة فالسيارة استعملت للدلالة على معنى هو القافلة أو
الركب فإذا قلت جاءت سيارة هل يفهمني المخاطب بمجرد لفظي ؟
أظن لا . بل لابد مع ذلك من كلمة أخرى مبينة للمراد

لا أدري ما المانع من أن يدخل في اللغة ترام ويقال أترم ومترم

كما قالوا لجام وألجم وملجم

إن الكلمة التي نريد اصطياًداها قد وضعها واضعها بالضرورة لتدل على معنى خاص فإذا نحن أخذناها واستعملناها في شيء جديد لم نكن قد جرينا على لغة العرب لأننا خالفنا أوضاعهم ومقاصدهم فهم وضعوا بشكى وجمزى مثلاً للناقة السريعة فإذا جعلنا كلمة منهما بإزاء الترام نكون بلا شك وضعنا وضعاً جديداً لم يسبقنا إليه سابق . واجتلاب مثل هذه الألفاظ بالنسبة لمحفوظ اللغة كوضع ألفاظ جديدة مؤلفة من أحرف اللغة فسيان في الاعتراض على رأيهم أن نقول للترام بشكى وأن نقول له ترام لأنهما كلاهما استبداد بوضع اسم لمسمى لم يكن له وجود قبل الآن إلا أن وجه الضرر في الأول ظاهر كما يتضح وجه المنفعة في الثاني فإننا في الأول نجري على خطة لا أساس لها مع وصف الخروج عن أوضاع المتقدمين وفي الثاني نجري على خطة اتبعها سلفنا مع الوضاحة التامة في الاسم والمسمى ولا أدري بعد ذلك ما الذي يدعونا إلى تعسف الطرق ولعلمهم يرون في ذلك رأياً فيقولون إنا باتباع الطريق الأول حافظنا على ما بين دفتي القواميس فلم نحد عنه قيد شبر ولم نخرج عما نطق به العرب في بواديهم وفي ذلك من احترام الآباء وإقناع الناس بغنى اللغة العربية وثروتها حتى لا يهزأ بنا هازئ فيقول إن لغة تربو عدة كلماتها على الثمانين

ألفاً محتاجة إلى ما يكملها ويستد ثلثة فيها

أما دعوى أن هذا محافظة على ماهو عندنا فغير صحيحة لأنها إنما تكون بالمحافظة على الاسم والمسمى الذى وضع اللفظ بإزائه وإذا لم نفعل ذلك كنا قد خيلنا على الناس تخيلاً لا قيمة له وارتكبنا فى التغيير من أوضاع القواميس ما لا يخفى لأننا إذا كتبنا لفظاً من هذه الألفاظ التى اخترنا التوسع فيها واستعمالها لشيء جديد أنذكر فى قواميسنا معنيها القديم والحديث فنكون قد ابتدعنا وأوقعنا السامع والمتعلم فى حيرة أم نترك ذكر المعنى القديم ونقتصر على الحديث . ووصف هذا بالإفساد فى لغة المتقدمين واضح لا يحتاج إلى بيان وخير منه أن نذكر لفظ ترام مثلاً بعد الاتفاق على لفظها ونذكر بجانبها معناها وإنها مما عرب للدلالة عليه ونبين تاريخ تعريبها فيكون ما وضعه المتقدمون معروفاً وحده وما ألحقه باللغة المتأخرون معروفاً وحده وهذه هى المحافظة الحقيقية على ما ورثناه من سلفنا

وأما أن يغتر مغتر بكثرة ألفاظ اللغة حتى لا يحتاج إلى مزيد ففيه غلطتان كبيرتان فإن الثروة المزعومة لا نقول بها لأننا إن طرحنا منها المترادف ما وجد معنا بعد ذلك أكثر من الثلث بهذا العدد فكثيراً ما نجد المعنى الواحد له اسمان فأكثر إلى خمسمائة اسم كما

قالوا في السيف والخمروا الهرو العسل وماشا كل ذلك وهذه ليست بثروة
والثروة التي أسلم بها إنما هي في أسماء المعاني وليست داخلية
في موضع بحثنا

وأما عدم الحاجة إلى مزيد فهذا لا تدعيه لغة من لغات الأمم
الحية لأن الأمم كلما كثرت حاجاتها وتجددت اضطرت إلى المزيد
من الألفاظ في اللغة وهذا هو سر الحركة الدائمة في لغات الإفرنج
بحيث ترون مجامعهم في شغل دائم لا يأنفون أن يجدوا يوماً ما في
لغتهم كلمة زائدة دلت على معنى جديد وأكثر أحوالهم الاستعارة
من غير لغتهم . وإذا كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع فإننا
نرى أنفسنا في حاجة إلى استعمال مخترعات المخترعين والتعبير عنها

أدوار الشعر العربي

« لأحد الأدباء المعاصرين »

⑤ كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة البيضاء
النقية لا تعبث الحضارة بجمالها . ولا تغر المدينية في وجهها . تطلع
الشمس في آفاقها فتبسط على سهولها وحزونها ونجاداتها ووهادها
من حيث لا تعترض في سبيلها من المظلات سحب . ولا من السقوف

حجب . وينبت نباتها حيث يجرى ماؤها لا تعبت فيه الأيدي بترييع
ولا تدوير ولا تقويس ولا تعريج ويجرى ماؤها في سبيله متدفقاً
حيث ينساب به تسلسله واطراده لا تلوى به عن قصده الحفائر .
ولا تنتصب في وجهه القناطر . ويهيم وحشها في جبالها وطيرها
في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود . ولا الآخر
قفص محدد . والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية مجلوة تتمثل
فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وجوهرها

ينطق العربي بما يعلم ، ويقول ما يفهم ، ويصور ما يرى ، ويحدث
عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل لأن كل
ما هو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب ومرافق
وأدوات على الفطرة السليمة الخالصة فأحرى أن يكون شعره كذلك
ذلك كان شأن شعر العربي والعرب على فطرتهم وذلك معنى
قولهم الشعر ديوان العرب لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية
وتمثال خواطرهم الحقيقية والخيالية فان ظن ظان أن التماثيل والنصب
والمخطوطات والمنسوجات والصور والتماثيل وبقايا الآثار وقطع
الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة
أدلة على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب
قلنا له ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدث المؤرخون

بعثت الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته أما الديوان العربي فصورة
صحيحة وآية مقدسة لا تغيير فيها ولا تبديل

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس فاتقلت الأمة العربية
من بداوتها إلى حضارتها وهاجر معها شعرها بهجرتها فطلع جيش
المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان بشار وأبونواس فطرقوا معاني
لم تكن مطروقة ونهجوا مناهج لم تكن معروفة فقلنا لا بأس فالشعر
العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته في جميع شؤونها وحالاتها
حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية فسلك إلى أكثر معانيه
البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف فتغر في الشعر
العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم
حتى صيروها باباً أفوه لا يمنع ماوراءه ولا يدفع ماأمامه فأصبح
الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي
والسراج والجزار والخلي وأمثالهم أشبه شيء بتلك الآنية الفضية أو
الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم
ظهر أزهياً وبطناً خاوياً لا تشفى غلة ولا تبض بقطرة ولا تسمن
ولا تغنى من جوع. ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون
من هذه المنزلة فجاءوا بشيء هو أشبه الأشياء بتلك المقاييس والتفاعيل
التي وضعها الخليل ميزانا للشعر لا يروق لفظها ولا يفهم معناها

وعلى هذا المورد الويل وقف الشعر بضعة قرون وقفة لا يتزحزح
عنها ولا يتحلجل حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلا في هذا
العهد الأخير أخذوا بيده ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره
فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم أجسام أبي نواس وأبي عبادة
وأبي تمام والشريف وبشار لا فرق بينهم وبينهم إلا أن هؤلاء
مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الأبتكار

وصف كتاب النظرات

« لحافظ إبراهيم »

(وهو كتاب أرسله الكاتب إلى المؤلف)

قدم أحد أقيال اليمين إلى دار الندوة فبصر فيها بصاحب الشريعة
الإسلامية وهو إذ ذاك غلام مراهق فقال لمن حضر من القوم إن
هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبوة وتارة بعيني عذراء خفرة . فلو أن
نظرتي الأولى كانت سهماً لا تتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً . ولو أن
الثانية كانت نسيماً لا نشرت أمواتكم . وكذلك أراك في نظراتك إلى
قومك أيها الكاتب الكبير . فلو لا أنك غير معصوم وأن الله قد أجل
مقام النبوة عن الأشباه والنظائر لقلت ما أشبه هذه بتلك والسلام

(١) مرصوف بك
 (٢) دائرة الكتب
 (٣) ختم استاذة المعاهد
 (٤) دائرة الكتب
 (٥) دائرة الكتب
 (٦) دائرة الكتب
 (٧) دائرة الكتب
 (٨) دائرة الكتب
 (٩) دائرة الكتب
 (١٠) دائرة الكتب
 (١١) دائرة الكتب
 (١٢) دائرة الكتب
 (١٣) دائرة الكتب
 (١٤) دائرة الكتب
 (١٥) دائرة الكتب
 (١٦) دائرة الكتب
 (١٧) دائرة الكتب
 (١٨) دائرة الكتب
 (١٩) دائرة الكتب
 (٢٠) دائرة الكتب
 (٢١) دائرة الكتب
 (٢٢) دائرة الكتب
 (٢٣) دائرة الكتب
 (٢٤) دائرة الكتب
 (٢٥) دائرة الكتب
 (٢٦) دائرة الكتب
 (٢٧) دائرة الكتب
 (٢٨) دائرة الكتب
 (٢٩) دائرة الكتب
 (٣٠) دائرة الكتب
 (٣١) دائرة الكتب
 (٣٢) دائرة الكتب
 (٣٣) دائرة الكتب
 (٣٤) دائرة الكتب
 (٣٥) دائرة الكتب
 (٣٦) دائرة الكتب
 (٣٧) دائرة الكتب
 (٣٨) دائرة الكتب
 (٣٩) دائرة الكتب
 (٤٠) دائرة الكتب
 (٤١) دائرة الكتب
 (٤٢) دائرة الكتب
 (٤٣) دائرة الكتب
 (٤٤) دائرة الكتب
 (٤٥) دائرة الكتب
 (٤٦) دائرة الكتب
 (٤٧) دائرة الكتب
 (٤٨) دائرة الكتب
 (٤٩) دائرة الكتب
 (٥٠) دائرة الكتب
 (٥١) دائرة الكتب
 (٥٢) دائرة الكتب
 (٥٣) دائرة الكتب
 (٥٤) دائرة الكتب
 (٥٥) دائرة الكتب
 (٥٦) دائرة الكتب
 (٥٧) دائرة الكتب
 (٥٨) دائرة الكتب
 (٥٩) دائرة الكتب
 (٦٠) دائرة الكتب
 (٦١) دائرة الكتب
 (٦٢) دائرة الكتب
 (٦٣) دائرة الكتب
 (٦٤) دائرة الكتب
 (٦٥) دائرة الكتب
 (٦٦) دائرة الكتب
 (٦٧) دائرة الكتب
 (٦٨) دائرة الكتب
 (٦٩) دائرة الكتب
 (٧٠) دائرة الكتب
 (٧١) دائرة الكتب
 (٧٢) دائرة الكتب
 (٧٣) دائرة الكتب
 (٧٤) دائرة الكتب
 (٧٥) دائرة الكتب
 (٧٦) دائرة الكتب
 (٧٧) دائرة الكتب
 (٧٨) دائرة الكتب
 (٧٩) دائرة الكتب
 (٨٠) دائرة الكتب
 (٨١) دائرة الكتب
 (٨٢) دائرة الكتب
 (٨٣) دائرة الكتب
 (٨٤) دائرة الكتب
 (٨٥) دائرة الكتب
 (٨٦) دائرة الكتب
 (٨٧) دائرة الكتب
 (٨٨) دائرة الكتب
 (٨٩) دائرة الكتب
 (٩٠) دائرة الكتب
 (٩١) دائرة الكتب
 (٩٢) دائرة الكتب
 (٩٣) دائرة الكتب
 (٩٤) دائرة الكتب
 (٩٥) دائرة الكتب
 (٩٦) دائرة الكتب
 (٩٧) دائرة الكتب
 (٩٨) دائرة الكتب
 (٩٩) دائرة الكتب
 (١٠٠) دائرة الكتب

(١) «إبراهيم بك المويلحي»

لأكون مبالغاً إن قلت إن المرحوم إبراهيم بك المويلحي هو شيخ
 الكتابة العربية في هذا العصر وإنه هو الذي علم الكتاب كيف يرقون
 بلغتهم إلى المنزلة التي وصلت إليها اليوم وكيف يودعون كتاباتهم النكات
 البديعة والمعاني المستطرفة ويخرجون بها من ذلك الجمود القديم

المؤلفة من طلبة العلوم العربية في المدارس وغيرها . وما لنا نجد أهل تلك الصناعات يسلكون سبيل الإتيقان والإحسان في دأرتهم على كل حال بممارسة العمل ومزاولة الصنعة ونجد أهل صناعة الانشاء قد وقعوا عند حد محدود ونقطة معينة لا يتعدونها ولا يتخطونها وارتضوا لهذه الصناعة العالية وذلك العلم النفيس أن يبقى على الضعف والخنول ويقيم على النزول والهبوط

ولا يقال هنا إن قلة الفائدة المادية من هذه الصناعة هي التي تصرف بوجوه الطلبة عن طريق الاتقان فيها والتضلع منها فانها صناعة عامة تطلب لذاتها ويزدان بها غيرها من الصناعات وحسن النطق والتعبير أمر يرغب فيه كل إنسان وأعظم وجوه التفاضل بين البشر تنصرف إلى قوة البيان وحجة اللسان

وليس الاشتغال بالصناعات الأخرى التي يطلب بها الرزق ويستعان بها على كسب المال لسد حاجات المعيشة مما يمنع من ممارسة تلك الصناعة الشريفة ويشغل النفس عن التحلي بمزاياها الجليلة فالقاضي يحتاج إليها والمحامي ينتفع بها والحاكم لا يستغنى عنها وجميع أرباب الوظائف المتنوعة والمناصب المختلفة لا يخلون من الرغبة فيها بل لو نزلنا إلى بقية أهل الحرف والمهن من التجار والصناع وباعة الأسواق لوجدناهم يتطلعون إلى المشاركة فيها ويتمرنن الخطوة بها وهم في هم

الحرفة وكد المهنة وقد علمنا أن الرجل من أهل العصور السالفة
يكون خبازاً وشاعراً مجيداً ويكون جزاراً وكاتباً أديباً ويكون حداداً
وخطيباً بليغاً

فلا يكون السبب إذن في انحطاط صناعة الإنشاء والتحرير وقلة
عدد المشتغلين بها راجعاً أبداً إلى ضعف الفائدة المادية منها وتحول
النفوس عنها لاثتماس الربح من وجوه الصناعات الأخرى ولا لفقد
الرغبة فيها لذاتها فإنها زينة كل صانع وحلية كل ناطق وغرة كل علم
وفن وإثما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين
للعلوم العربية بين طلبة المدارس وضعف العناية في اختيار الكتب
النافعة للتدريس . وليس هذا في نظرنا السبب الوحيد لما نشاهده من
التأخر والانحطاط في صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها فإنك
مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع في تربية
ملكة الإنشاء في أذهان التلاميذ التي عليها المعول في حسن الصناعة
لأن المدة لدرس اللغة العربية في المدارس لا تكفي لغير الحصول على
أصول اللغة وقواعدها ولا تفيد في تكوين الملكة لشيء صالح ولا يخفى
عن علمك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول في الدرس ولا
يكاد يسيغها ولا يتناولها إلا كما يتناول المحموم مر الدواء ولا تمكث
في صدره إلا ريثما يمجهها عند أخذ الشهادة وإن هي ثبتت في حفظه

ورسخت في فكره فلا تكون على صفحات قلبه إلا كما هي على صفحات
الكتب لا يدرك وجوه استعمالها ولا يعلم أبواب التصرف بها والتطبيق
عليها فإذا جئت له بصحيفة من كتاب لم يتوقف في إعراب ألفاظها
على وجه الإحكام والصواب ولا كنتك إذا طلبت منه أن يقرأها لك
سردا لم يسلم على لسانه سطر واحد فيها من اللحن وإذا أخذته على
كتابة بضعة أسطر في أي شأن كان لم تخرج من يده خالية من الخطأ
على مثل هذا يخرج المتخرجون في المدارس سواء الفاضل منهم بالشهادة
والخائب فيها ثم ينصرف كل واحد منهم إلى ما ينصرف نحوه
من الأعمال والأشغال التي تلهيه عن كل صحيفة وكتاب ولا يجد
أمامه مجالاً لنمو ملكة الإنشاء ولا في وقته متسعاً للانكباب على مطالعة
الكتب النافعة في اتقان الصناعة ولا يرى بين يديه ما يبعث فيه
الشوق ويحيي الرغبة لممارستها ومزاوتها فإذا هو انتهى في يومه من
عمله إلى بيته اشتغل فيه بأهله وإذا خرج إلى السوق اشتغل فيه بالناس
والناس قد أصبحوا جميعاً في شغل شاغل وهم متواصل من ضروب
هذه المعيشة الحديثة وفنون المدنية الحاضرة فقل أن ترى فيهم من
يحاس المطالعة في كتاب أو يلتفت إلى محاضرة في أدب أو يحفل
بمناظرة في فن فيأخذ معهم في طريقهم ويسير على نهجهم فتلاشي
منه ملكة العلوم بدل أن تنمو وتنقص رغبته فيها بدل أن تزيد.

والفكر إذا لم يجد ما ينهه خمد . والذهن إذا لم يصادف ما يحركه جمد .
أما إذا ما ابتلاه الله بالدخول في خدمة الحكومة فتمل يا ضيعة العلم
والآداب ويا بؤس صناعة الإنشاء والتحرير ويا زوال ملكة الإفصاح
والتعبير إذ يتلقى هناك لسانا جديدا ولغة حديثة لا يهتدى فيها إلى
قاعدة ولا ترتبط برابطة ولا تفضل لغة البرابرة إلا بأنها تسطر دونها
وتدون فيضطر المسكين أن يمحو من ذهنه جميع ما تعلمه وتلقاه من
قواعد اللغة وأصولها ويحمد الله في نفسه على زوال الحاجة إليها
وحسن خلاصه من عناء التذكرة لها وطول الاشتغال بها . ولو أنه
ذهل يوما وجاء في بعض عمله بحملة صحيحة وعبرة مستقيمة في اللغة
وانحرف عن ذلك اللسان المصطلح عليه شيئا قليلا لأصبح عرضة
للتهمك عليه والاستهزاء به بين العمال فيعمد إلى التوبة من الذنب
ويمتنع عن معاودة الإثم ولا يجد له من سبيل إلا أن يجري معهم
في مضارهم ويأخذ بلسانهم فيأمن من مكرهم

فأنت ترى على هذه الحال أن السبيل إلى تربية ملكة الإنشاء
قبل الخروج من المدرسة غير ميسرة وبعد الخروج منها متعذرة
وأن مزاولة الأعمال ومخالطة الناس تعين على زوالها وتبعث على
خمودها . إلا أنه قد بقي لدينا مع ذلك باب كان يرجى منه النجاح في
نمو تلك الملكة والتدرج إلى إتقان صناعة التحرير وهو باب الصحف

والجرائد فإن الناس إن كانوا قد غفلوا عن مطالعة الكتب وأهملوا
النظر في بطون الدفاتر فإنهم استبدلوها في أوقات فراغهم بمطالعة
الجرائد المنتشرة على الأيدي في كل يوم وأصبحت النفوس متولعة
شديدة التولع بالوقوف على أخبارها والتسامر بأقوالها وصارت
بينهم شيئاً من لوازم المعيشة في كل يوم لا يصبرون عنها ولا يستغنون
عن تلاوتها وأقاموها لديهم مقام كل سفر وكتاب وتعلقت نفوسهم
بهذا الشيء الحاضر على الدوام بين أيديهم في كل مكان فكان المأمول
أن طول انكبابهم على مطالعتها عند كل صباح ومساء يذهب على مرور
الزمن فيهم باكتساب ملكة الإنشاء وسرعة الوصول إلى المنزلة
الرفيعة في حسن التعبير والتجوير ولكن من سوء الحظ أن الجرائد
السائرة لم تلتفت إلى هذا الغرض الجليل ولم تعمل لهذا المقصد النبيل
ولم ير أربابها أن يتعبوا أنفسهم ويكدوا خواطرهم للتفنن في بلاغة
القول وفصاحة التعبير وانتقاء الألفاظ وتنويع التركيب وتجديد
الأسلوب وما شابه ذلك من محاسن هذه الصناعة التي تشوق النفوس
وتطرب إليها القلوب وتأخذ بمجامع اللب ويلطف تناولها على الملكات
وتحن القرائح إلى اقتباسها وتحرص الأذهان على اقتنائها فتتولع النفوس
بمحبة الاشتغال بها وتنصرف الأفكار إلى الترقى في مراقبها وتتسكون
فيها من إدمان المطالعة بضاعة نفيسة تذهب بالناس إلى طلب التزيد
(١٣ - مختارات)

١- الحرص في سبغ
٢- تميز الجمل بنسب
٣- صالحة
٤- حنة
أوقاتهم في اجتناء ثمراتها وينتهي بهم الأمر إلى التوغل في أبواب الصناعة والوصول إلى جميل الإحسان والإتقان فيها فينبغ فيهم النوايح من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد الكتاب والأدباء

١٩٠٦ بل رأينا أرباب الجرائد قد وقفوا هم أيضا في باب التحرير عند حد محدود وقعدوا عند نقطة معينة وداروا بأقلامهم في دائرة واحدة لا يخرجون منها ولا يتوسعون فيها وكادوا يصلون في وحدة التعبير واصطلاح التحرير وتكرير الجمل والألفاظ بعينها في كل يوم وفي كل باب إلى مصطلح من اللغة يشابه مصطلح لغة الحكومة وإنما يفضل به بسلامته من اللحن وحده على وجه عام . وقد صارت تلك الجمل والتراكيب المعينة لطول إعادتها وتكرارها راسخة ثابتة في جميع الأذهان فلا يشتغل فكري كاتبها في تسطيرها ولا يحتاج جامع حروفها إلى مراجعتها ولا يمعن قارئها بنظره في مطالعتها فهي مشتركة في الأذهان ومتمثلة للأنظار وقد اهتدى بعض أصحاب المطابع إلى سبك كثير من تلك الجمل والمركبات قطعة واحدة في قوالب من نحاس تخفيفاً للعمل واسترباحاً للوقت . وإذا شعر أرباب الجرائد يوماً بهذا الإخلال والإفساد في الصناعة قالوا إن لنا فيه عذرا واضحا وشفيعا ظاهرا وهو أننا إذا سلكننا طريق التفنن والإبداع في التحرير والإنشاء

عسر على القراء فهم ما نكتبه لهم فلا يستريحون إلى المطالعة ولا يستفيدون من المواضيع فتحن مضطرون إلى الوقوف عند هذا الحد البسيط . وفاتهم أن الواجب على الكتاب المجيد الذين يضعون أنفسهم أمام القارئ في موضع الهادي والمرشد ومقام المربي والمعلم أن يرتفعوا بذهن القارئ إلى درجة أذهانهم لا أنهم ينزلون بأفكارهم إلى درجة أفكاره .

نقد الدرة اليتيمة

« للشيخ إبراهيم اليازجي »

أهديت إلينا نسخة من هذه الرسالة الأنيقة وهي من تأليف الكاتب البليغ المشهور عبدالله بن المقفّع أودعها فنونا من الحكمة وآداب المخالقة والمعاشرة وما ينبغي للإنسان أن يتزيا به من الأخلاق في مصاحبة الحكام ومخالاة الأصدقاء ومداراة الشائتين والحساد وما يسلكه من الطرق لآتقاء الأعداء وأصحاب الطوائف والتسبب إلى النيل منهم ورد كيدهم إليهم . وكل ذلك مما لقنته التجربة وأعانت عليه الحكمة وأرشده إليه ذكاء قلبه وتوصل إليه بعين النقد والاعتبار وتتبع الأمور بالنظر الصادق والقلب الحافظ بحيث كان لا تمر به واقعة ولا يجري أمامه أمر إلا تمثل فيه عبرة وانتزع منه حكمة

واستفاد به بصيرة فأتى في عامة الكتاب بمالم يُسبق إليه ولم يجمعه
من قبله جامع ولا غرو أن يصدر مثل ذلك عن هذا الرجل الكبير
على ما اشتهر به من سعة عقله وبعده نظره وغلزارة علمه وقوة عارضته
وما عرف به من بلاغة الكلام وسحر البيان والحكمة الرائعة وكيف لا
وهو معرب كتاب «كليلة ودمنة» المشهور الذي لو لم يكن له فيه
إلا أنه كساه من ديباجة لفظه ووشى بيانه ما كان به نسيج وحده في
التصانيف العربية فضلا عن المعربة وما لا يزال به على الدهر جديدا
لا تبليه الليالي ولا تغيره الأيام لكفاه دليلا على غزارة فضله ورأسته
بين أرباب البلاغة وأمراء الإنشاء

ولا بأس أن نورد هنا لمعة يسيرة في المقابلة بين كلامه في هذه
الرسالة وعبارته في تعريب كليلة ودمنة لا نقصد بذلك غير فائدة النقد
وما يترتب عليه من استخراج الحقائق وإرشاد البصائر فإن من تتبع
الكتابين بالنظر النقاد وتصفح أسلوبهما بالذهن الشفاف واعتبر
بعضهما ببعض فلا جرم أنه يرى كلامه في كليلة ودمنة أخلص ألفاظا
وأنقى ديباجة وأنصح ألوانا وأشد أنسجاما حتى ترى عبارته هناك جوهرا
صافيا ونسقا مطردا لا يتوقف دونها الفهم ولا تُجهد عندها الروية
ولا يعترض بيانه فيها لبس ولا إشكال . وإذا اعتبر كلامه في الدرّة
وجد كثيرا منه غير خالص من التعقيد والاضطراب قلق الأسلوب

صعب الاستخراج غير نضيج على الجملة ولا منقح العبارة . بلى إن
النسيج في كلا الكتابين واحد وطبقة الكلام لا تختلف ولكن هناك
من الاندماج والسلاسة وانقياد الأغراض واضطراد السبك ما لا تجده
هنا . ولعل ذلك إذا تتبععت أسبابه وارد من كثرة تداول الأيدي
لذلك دون هذا فكان مثله مثل الدينار الذي كثر التعامل به وطال
تنقله من يد إلى يد حتى أزالَت الأيدي حُرشته وعاد أُمْلَس ناعماً .
وذلك أن كتاب كلية ودمنة قد رزق من الشهرة والاستحسان
وإجماع العقول على إشارته ما لم يرزقه كتاب في بابهِ وهو إلى اليوم
أشهر من نار على علم . ولا تكاد ترى متأدياً إلا وقد اطلع عليه
وشغف به وطالما كان موضع ارتياح للبلوك والرؤساء والعلماء والأدباء
وقد كثرت عنايتهم به وخدموه خدمة لم يخدمها كتاب فسامنهم إلا
من انتسخه أو استنسخه فضلاً عن نظمهِ من شعرائهم فكان الناسخ
من أهل الذوق والبصر بالإنشاء إذا رأى فيه منقحاً أزاله أو وداً أقامه
فلم يغادر وافيهِ عبارة نافرة ولا لفظة قلقة ولا تركيباً ثقيلاً بحيث أنه
على تمادى الزمن وتكرر النسخ تمَّ تهذيبه وتنقيحه . والذي يدلُّك
على صحة ما تقول أنك لا تكاد تجد نسختين منه تتواطآن على لفظ
واحد حتى أن دسائسِي كان بين يديه سبع نسخ منه كل واحدة مبيّنة
للأخرى . وهذا مما يدل على فضل هذا الكتاب ولا يغض من

قدر معربه شيئاً إذ الكلام لا يزال كلامه والأسلوب أسلوبه وبمقابلته
بالدرة التي نحن في الكلام عليها يظهر لك مصداق ذلك وتري أن
ديباجته مع ما تبدل عليها من النقوش والزخارف لم يتبدل متنها
ولا تنكر لونها ولكنها ما زالت تُعرف لأول لمحّة لا تغيب عن معرفة
الناقد وتمييز العارف

على أنا لا نتكر أن أكثر ما في عبارة الدرة من السقم والاضطراب
إنما ورد عليها من قبل النساخ وشتان ما بين صنيعهم هنا وصنيعهم
هناك ولكن كل ناسخ إنما فعل بمقدار عليه فإن الذين نسخوا هذه
الرسالة لم يعدوا في إلا أكثر حال سائر الناسخين ممن لا علم لهم بما
ينسخون . والذين تولوا نسخ كليلة ودمنة كان الكثيرون منهم من
فحول أهل الإنشاء والمعرفة بأسرار اللغة وأساليب الكلام فلا عجب
أن جاء كل من نسخ الكتابين على ما رصفنا والله أعلم

وإثباتاً لما ذكر وتنزيهاً لعهد المؤلف عن كثير مما جاء في هذه
الرسالة تنقل هنا بعض المراضع التي أشرنا إليها مما أفسده تحريف
النساخ ومالعه اجتمع إليه من أغلاط الطبع التي هي فاشية في كتبنا
العربية لا يكاد يسلم منها كتاب . والتي هي ولا جرم أعظم ضربة على
المصنفين والكتاب فمن ذلك ما جاء في صفحة ٩ وهي الصفحة
الأولى من الرسالة « غير أن الذي نجد في كتبهم هو المحتل في

آرائهم والمنتقى من أحاديثهم « فإن قوله «المنتحل في آرائهم» غريب
في هذا الموضع لا يستقيم له معنى ولا هو مما يحتمله سياق الكلام
وصوابه «المنتحل» بالخاء المعجمة وهو بمعنى المنتقى الوارد بعد
مع تبديل لفظ «في» بلفظ «من» وهو الوجه السديد الذي لا غبار
عليه كما ترى .

ومن ذلك في صفحة ١٠ «في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه
وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذهم» فإن هذه المخالفة في
صيغ الضمائر لا وجه لها بل منها ما يفسد المعنى كما ترى والوجه إيرادها
جميعاً بلفظ التذكير والإفراد عوداً على العلم

وفي صفحة ١١ «واعلم أن من العجب أن يُبتلى الرجل بها (أي
بالإمارة) فيريد أن ينتقص من ساعات نصّبه وعمله فيزيدها في
ساعات دعوته وشهوته» فقوله «من العجب» لا معنى له في هذا المقام
كما ترى ولا ما ذكره بعده مما فيه عجب إذ أكثر الناس على هذا
السبيل من إثارة الدعة واللذة . بل الأظهر أن الأصل «من العجز»
فأبدله الناسخ سهواً أو عمداً لأنه لم يفهم معنى العجز هنا وهو نقيض
الجرأة فانثلم بذلك المعنى وتشوّهت صورته كما ترى

وفي صفحة ١٣ «لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه أو
يستخف له شأن» ولا معنى للشأن هنا كما ترى والصواب «شأن»

وفي الصفحة نفسها « واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم
أزرى بالمهم » شُكِلت الشين من « شغلت » بالضم فتكرر المعنى
واضطربت سلسلة الكلام لأن « ما » صارت على هذا شرطية زمانية
والمقصود أن تكون اسما موصولا يرجع إليه ضمير محذوف بعد
شغلت وذلك على حد قوله بعد « وما صرفت من مالك بالباطل فقدته
حين تريده للحق وما عدلت به عن كرامتك إلى أهل النقص أضرب
بك في العجز عن أهل الفضل »

وفي صفحة ١٦ « لا يلوم من الوالى على الزلة من ليس بمتهم على
الحرص على رضاه » والصواب « فى الحرص »

وفي صفحة ١٨ « لا يعرفك الولاية بالهوى فى بلدة من البلدان
ولا قبيلة من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها إلى حكاية أو مشاهدة
فتهم فى ذلك » وفيه خطأ يعلم الله مكانه وإلا فهذا الكلام لا يمكن
أن يصدر عن قلم المؤلف . ثم إن قوله « فى بلدة من البلدان »
فيه تحريف بزيادة التاء على بلدة لأن فعلة لا تجمع على فعلا وإنما
البلدان جمع بلد مثل حمل وحملان وجمع البلدة بلاد

وفي صفحة ٢٠ « لا تحضرن عند الوالى كلاما لا يعنى ولا يؤمر
بحضوره إلا لعناية به أو يكون جوابا بالشئ سئلت عنه » وفى هذا
الكلام من الاضطراب والابهام ما لا يخفى ولا تعين حروفه على

على معرفة أصله بيد أن قوله « جواباً بالشيء » فيه تكرار حرفين
وصوابه « جواباً لشيء »

ومثله في صفحة ٢٢ « إذا قال لك السائل ما إياك سألت أو قال
لك المسئول عند المسئلة يعاد له بها دونك »

وفي صفحة ٢٤ « فليست عليه مؤونة في تبذل يتبذل له عنده »
وفيه زيادة لام والصواب يتبذله عنده »

وفي الصفحة نفسها بعد ما ذكر « أو رأى يستزله منه » والصواب
« يستزله »

وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب ذاهبة كل مذهب ما بين نقص
وتبديل وإحالة لبعض الكلم عن مواضعه مما تنكرت به صور
التراكيب والتبست وجوه المعاني وذهب ما فيه من الفصاحة والسبك
وأنت خير بأن ما يوصف من الكتب بالسقم والغثاء أو بالتكلف
والتعقيد لا يستلزم أن تكون كل عبارة فيه كذلك ولكن الجملة
الواحدة بل اللفظة الواحدة في الصفحة إذا نزلت في غير منزلها
فقد تكون كافية لأن تخدش رونقها وتشوه سائر ما فيها من المحاسن
كالوجه الجميل إذا كان على إحدى عينيه كوكب أو في إحدى وجنتيه
قرحة فقد تنبو العين عن النظر إليه وإن كان سائرُه سليماً لا عيب فيه
لاجرم أن ذلك لما يشعر له بالأسف كل من عانى هذا الشأن

أى شأن الكتابة والتأليف وتمثل ما بذل المؤلف رحمه الله من
الإغراق في النظر وتحري من الصحة والإحكام في وضع هذا الكتاب
الذى هو نتيجة تجاربه وثمره عقله ومعرض بيانه . وكم مثله من السلف
من لو عادوا اليوم وعانوا ما صارت اليه مصنفاتهم ومأميت به من
صنوف الجدع والصلم لثمنوا أنهم لم يجرؤوا فيها قلباً ولم يعملوا فيها فكراً
فالله أيها الناس في أمانات أولئك الأقوام إنكم كنتم عليها أتم
المؤمنين . وأنهم ليسوا بشاهدي أمركم فارحموهم إنهم كانوا للرحمة
أهلاً وكانوا من المحسنين . واعلموا أن ما وقع إليكم من تلك الأوراق
ليس مما أنبت التراب . وسماه السحاب . وأنضجته الشمس والضباب
ولكنه مما أضئ في الأجساد . وأفئت العيون بالسهاد . وصدعت
لأجله الرؤوس . وأذيت الأدمعة على صفحات الطروس . وأنه لما
بيعت به الأعمار فلا تليعوه بيع الرخيص . وبذلت لأجله الدنيا وهي
أحق ماض به حريص . وإنما فعل أربابه ذلك بغية الذكركم حتى إذا
فئت أعيانهم عاشوا بالآثر . ولكي يعرفوا بصور عقولهم إذا ذهبت
الأجساد وبقيت بين أيدينا منهم تلك الصور . تالله ما الأرضة التي
تأكل الكتاب فتمزقه بَداد . ولا النار التي تحرقه فتصيره إلى
الرماد . ولا الماء الذي يغرقه فيضرب بينه وبين الوجود بالأسداد
بأضر عليه من يحرف عباراته . ويبدل حسناته . وينسخ محاسن

آياته . وإن ذهب الكتاب جملة بداهية من نوازل القدر . وضياع
فضل مؤلفه وما يرجو أن يبقى به من جميل الأثر . لأهون على قلبه
من أن ينشر بعده بين أيدي الناقلين . وقد حمل عليه من العيوب
ما يجعله عرضة للمفنديين . وغرضاً لسهام المنتددين

عصمنا الله بمنازل به أقلامنا أنها الزلة الباقية على كرور الليالي
وكفانا شر من يفسد آثارنا من بعدنا أنه كفى العبد ما يتوقع من
إفساد كيانه ومصيره إلى الانحلال . وحسبنا الله وكيلاً ولا حول

ولا قوة إلا بالله
قال : أنه ليس بمتن
كلام نوره يقف
بعضه كنه = قص
الطريق القسرية : بآداب + المقيدة : لا حصر + لئلا : لئلا
لذهبة الجوهر الشعر

« لآبراهيم بك المويلحي »

تمضي القرون والدهور والناس يقولون الشعر وينشدونه
ويسمعونونه ويشرحونه وينقدونه وهم مذاهب شتى في تعريفه فإذا
بحث الباحث في أقوالهم لم يقف منها على تعريف للشعر ترتاح إليه
نفسه . والباحثون المدققون ينظرون إلى الشعر وتأثير وقعه في النفس
من وجهين من حيث هو كلام موزون ومن حيث هو حالة من
حالات النفس

أما الوزن فهو تأليف عدة أصوات على نمط تحس بها الأذن صوتاً أثر صوت حتى إذا أتت على الأخير منها تذكرت أولها واستخلصت من هذا التأليف وحدة تلتقطها دفعة واحدة وهو ما يسمونه في عرف الموسيقيين بالتنسيق والانسجام وهو في تأليف الأصوات لحاسة الأذن يماثل التعادل والتوافق بين أشكال الأجسام لحاسة البصر . فالبيت الموزون ظرف موسيقى في الشعر كقصبة النافخ في آلات الطرب

وأما من حيث هو حالة من حالات النفس فنقول . إن في النفس مسحة علوية هي الجمال والبهاء الباطني تظهر عليها عند صفاء النفس وخلوها من شوائب الأكدار ولما كان ذلك لا ينتابها إلا حيناً بعد حين ظنته شيئاً طارئاً عليها من الخارج فلهذا نسب القدماء تجلي ذلك البهاء والجمال إلى أرواح أخرى تمتزج بالنفس . فكان شعراء اليونانيين الرومانيين يسمونها (الموز) (Les Muses) ويفسرونها بآلهة الشعر وطالما كانوا يستدعونها عند إرادة قول الشعر وهذا (هومير) و (أزيوت) و (سيمونيد) و (سفوكل) و (أوريبيد) و (فرجيل) و (لكريس) و (هوراس) كلهم ينادون تلك الآلهة ويستعينون بها على زعمهم في مطالع قصائدهم كما تراه في شعرهم

ومذهب العرب في أن لكل شاعر شيطاناً يلقى إليه الشعر مذهب

مشهور والشعراء كافة عليه . قال بعضهم

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبؤ غنى
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
وقال حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم
إذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هو
إذا لم يسد قبل شد الأزار فذلك فينا الذي لا هو
ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هو
وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) واسم شيطان
المخبل (عمرو) قال الأعشى

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا لهم جهنم جدعاً للهجين المذم
وقال آخر :

لقد كان جنى الفرزدق قدوة وما كان فينا مثل فحل المخبل
ولا في القوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل
وقال أبو النجم :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أتى وشيطاني ذكر
وأنشد بعضهم لبعض الرجاز :

إن الشياطين أتوني أربعه في غلس الليل وفيهم زوبعه
وقال الفرزدق يصف قصيدة له :

كأنها الذهب العقيان حبرها لسان أشعر خاق الله شيطاننا
فإذا تجلى جمال الروح في الإنسان وصفت نفسه وكانت ممتلئة من
قبل بأطراف المعارف والفنون مطلعة على التواريخ والحوادث
والقصص والمحاضرات والنكات وبدائع المشاهد الطبيعية والصناعية
وكان لها من التجارب نصيب وافروكذ لها وقوف على مختلف الطبائع
والأخلاق فاضت منها المعاني البديعية فإذا وضعها في الألفاظ المحكمة
التي لا تطول المعنى ولا تقصر عنه فأفرغها في قالب الوزن اجتمع حسن
المعنى مع انسجام اللفظ في انسجام الوزن فذلك هو بيت الشعر
والشعر هو إظهار ما خفي من الحقائق المعنوية وتوضيحها للسامع
توضيحاً يجاها عليه بوجوه مختلفة وتجديد ما أخلق تكرار النظر إليه
بهامه من الموجودات كما قال امرؤ القيس في وصف الأسنة التي يراها
الإنسان كل ساعة : ومسنونة زرق كأنياب أغوال . فكساها كساء
قشيباً من التأثير وجعل لبها في النفس سلطاناً جديداً . ولو خبرت
الحقيقة أن تشرف على الناس من أجل مكان لما اختارت إلا أن
تشرف عليهم من بيت الشعر

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر
وعلى ذلك فالشعر موجود في غريزة كل إنسان وكل إنسان
شاعر وليس كل ناظم شاعراً ويوجد الشعر في المنشور كما يوجد في

المنظوم إذا نشأ عنه تأثير في النفس ومثل ذلك ما نراه من الشعر في كلام البدوي وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبه فقال (إني لأرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس) وكقول الآخر (ما زلت أريها القمر حتى إذا غاب أرتنيه) وكما تراه في قصة محمود الغزنوي وقد فتح بلدا فجاء أهلها يطلبون منه أن لا يكسر أصنامهم وعرضوا عليه مالا عظيما فاستشار بعض خاصته فأشاروا عليه أن يبيعها منهم إلا واحدا قال له (أتريد أن يقال بعدك إن إبراهيم عليه السلام كاسر الأصنام ومحمود بائع الأصنام) ففعلت هذه الكلمة في نفسه فعلا رفض به ما كان محتاجا اليه من تلك الكنوز التي عرضوها عليه ومن الموزون ما ليس بشعر كما نراه في كثير من القصائد التي يقيد فيها أربابها ألفاظا بقيود الوزن فيضعون ذلك الظرف الموسيقى ما يذهب بحسن انسجامه كما يتوضح ذلك جليا في أشعار المتون التي ربطوا بها قواعد العلوم بالوزن ليسهل حفظها وسواها من نظم الشعراء الذين لم يكمل الاستعداد في نفوسهم لسلطان الشعر

لشبهه

وصف نهج البلاغة
«للشيخ محمد عبده» (١)

أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفة
بلا تعمل . أصبته على تغير حال . وتبلبل بال . وتزاحم أشغال .
وعطلة من أعمال . فحسبته تسلية . وحيلة للتخيلة . فتصفحت بعض
صفحاته وتأملت جملاً من عباراته . من مواضع مختلفات . ومواضع
متفرقات . وكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبت . وغارات
شنت . وأن للبلاغة دولة . ولل فصاحة صولة . وأن للأوهام
عرامة (٢) وللريب دعارة (٣) . وأن جحافل الخطابة . وكتائب
الذراية . في عقود النظام . وصفوف الانتظام . تنافح بالصفيح
الأبلج (٤) والقويم الأملج (٥) وتمتلج (٦) المهج . بروائع الحجج .

نهج

لشبهه

(١) «الشيخ محمد عبده»

هو رحمه الله أكتب العلماء وأعلم الكتاب في هذا العصر لا أعرف
فقيها بعد انقضاء دولة الأئمة المجتهدين في صدر الإسلام أقدر منه على
الكتابة الأدبية وله في كتابته مزية العلو والمثانة وسعة المادة اللغوية
والاقتدار على الحجة التي لا تدفع (٢) العرامة الشراسة
(٣) الدعارة سوء الخلق (٤) الصفيح السيف والأبلج اللامع
البياض (٥) الرمح الأملج الأسمر (٦) تمتلج : تمتص

لشبهه

وتقل دعة الوسوس . وتصيب مقاتل الخوانس (١) . فما أنا إلا
والحق منتصر . والباطل منكسر ، ومرج الشك في خمود . وهرج
الريب في ركود . وأن مدبر تلك الدولة . وباسل تلك الصولة .
هو حامل لوائها الغالب . أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب . بل كنت كلما
انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد . وتحول المعاهد .
فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية . في حل من
العبارات الزاهية . تطوف على النفوس الزاكية . وتدنو من القلوب
الصادقة . توحى إليها رشادها . وتقترن منها منادها . وتنفر بها عن مدا حض
المزال إلى جود الفضل والكمال وطرراً كانت تتكشف لي الجمل عن
وجوه باهرة . وأنياب كاشرة . وأرواح في أشباح النور . ومخالب
النسور وقد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب
عن هواها . وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد الأهواء
وباطل الآراء . وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً . لا يشبه
خلقاً جسدياً . فصل عن الموكب الإلهي . واتصل بالروح الإنساني
نخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى . ونما به
إلى مشهد النور الأجل . وسكن به إلى عمار جانب التقديس . بعد

(١) الخوانس : خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء

استخلاصه من شوائب التلبیس . و آفات کأنی أسمع خطیب الحکمة
ینادی بأعلیاء الکلمة . وأولیاء أمر الأمة . یعرفهم مواقع الصواب
و یبصرهم مواضع الارتیاب . و یحذرهم مزالق الاضطراب . و یرشدهم
إلی دقائق السیاسة . و یهدهم طریق الکیاسة . و یرتفع بهم إلی
منصات الرأسة . و یصعدهم شرف التذیر . و یشرف بهم علی
حسن المصیر

قصه محمد عبید بصیر احتیاء کثیر بصیرت فزیه . الفکر المجلد

باب الادب والحكمة

قسم المنظوم

الكرم

«لحاتم الطائي» (١)

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لأقول لسائل إذا جاء يوماً حلّ في مالنا النذر
أماوى إما مانع فبين وإما عطاء لا ينهيه الزجر
أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لاءاء لدى ولا نخر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضررى وأن يدى مما بخلت به صفر

الإيثار

«لحاتم الطائي أيضاً»

وما أنا بالساعى بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

(١) «حاتم الطائي»

هو أحد شعراء الجاهلية المجيدين وأكثر شعره فى تأييد ذلك الخلق

العظيم خاق الجود والإحسان الذى كان متجعلاً به

وما أنا بالطاوى حقيية رحلها لأبعثها خفاً^(١) وأترك صاحبي
إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنحها فأردفه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب^(٢) فعاقب

ذم الغيبة

«لكعب بن زهير»^(٣)

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

ذم الغيرة

«لبعض الشعراء المتقدمين»

ما أحسن الغيرة في حينها وأقبح الغيرة في كل حين
من لم يزل متهماً عرسه مُنصباً فيها لريب الظنون

(١) يقال خف في سفره خفاً إذا قل ثقله (٢) يقال عاقب فلان
فلانا في الرحلة إذا ركب هو مرة وركب الآخر أخرى

(٣) «كعب بن زهير»

هو أحد الشعراء المخضرمين وصاحب اللامية المشهورة التي مدح بها
النبي صلى الله عليه وسلم وهي إحدى المشوبات وقد ورث الشعر عن أبيه
زهير بن أبي سلي أحد أصحاب المعلقة

أوشك أن يغريها بالذي يخاف أن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطلع منك على ريبة فيتبع المقرون حبل القرين^(١)

فضل الأناة

« للقطامي »^(٢)

ليس الجديد مقيماً في بشاشته إلا قليلاً ولا ذو خلة يصل
والعيش لا عيش إلا ما تقر به عين ولا حال إلا سوف يتقل
والناس من يلق خيراً أقائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل^(٣)

(١) جمعت هذه الآيات القليلة جميع ما تفرق في كتابات الكتاب
الاجتماعيين الذين ينشئون المقالات ويدعون الكتب في هذا المعنى الصغير
وهو أن السبيل الوحيد إلى عفة المرأة واستقامتها عفة زوجها واستقامته
وأن سوء الظن بها أكبر باعث لها على الوقوع فيما اتهمت به

(٢) « القطامي »

هو عمرو بن تميم التغلبي كان نصرانياً معاصراً للأخطل وله شعر يعد
من الطبقة الأولى وهو أحد أصحاب المشوبات ومشوبته مطلعها

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بايت وإن طالت بك الطول

(٣) يتضمن هذا البيت أصدق حقيقة من حقائق روح الاجتماع وهي
أن الناس يجرون في الحكم على الرجال على أحكام المصادفات والاتفاقات
فمن ساعده الحظ فنجح فهو عندهم أعقل الناس وإن كان أجهلهم ومن
هفا في حياته هفوة نخاب في عمله فهو عندهم أجهل الناس وإن كان أعقلهم

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

السعادة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت وجدود
إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد (١)
وكان رأينا من غنى مذموم وصعلوك قوم مات وهو حميد
وإن امرئاً يمسى ويصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

كرم الضيافة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحل جديب
وما لخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

(١) يشير في هذا البيت إلى قاعدة من قواعد التربية وهي أن التربية على الأخلاق الكريمة إن لم تكن في زمن الصغر فقلها تفيد بعد ذلك

التجلد

« لبعض الشعراء المتقدمين »

قد عشت في الناس أطواراً على طرق
شئى وقاسيت فيها اللين والفضعا
لا يملأ الهول صدرى قبل موقعه
ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعاً

القناعة

« لامتأني (١) »

تلوم على وترك الغنى بأهلية
زوى (٢) الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى
مقلدة أعناقها بالقلائد

(١) « العتأني »

ت ٢٠٨ هـ

هو كلثوم بن عمرو أحد مشهورى الشعراء في عصر الرشيد العباسى
وأولاده وشعره لا يرتقى إلى الجيد ولا ينحط إلى الردىء
(٢) زوى الشئ عنه نحاه وصرفه

أَسْرَكَ أَنِي نَلْت مَانَال جَعْفَر
مَنْ الْعِيش أَوْ مَانَال يَحْيَى بَنْ خَالِد
وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي ^(١)
مُغْصَّهْمَا بِالْمَرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ
دَعَيْنِي تَجَنَّنِي مَيْتِي مَطْمَئِنَّةً
وَلَمْ أَتَجَشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ
رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً
بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ ^(٢)

مكارم الأخلاق

« لبعض الشعراء المتقدمين »

يَعَاتِبُنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دِيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تَكْسِبُهُمْ حَمْدًا
أَسَدُّهُ بِمَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا ثَغُورَ حَقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًا
وَفِي جَفَنَةٍ مَا يُعْلِقُ الْبَابَ دُونَهَا مَكَلَّةٌ لِحِمَاً مَدْفَقَةٌ تُرْدَا ^(٣)
وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ ^(٤) جَعَلْتَهُ حِجَابًا لِبَيْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتَهُ عَبْدًا

(١) أغصه بكذا جعله يغص به (٢) الأساود نوع من الحيات (٣) الجفنة
القصة والثرد جمع ثريد (٤) الفرس النهدي القوى والعتيق الكريم

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيبي هويت لهم رشداً
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سعداً^(١)
ولا أحمل الحق القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقداً
لهم جل مالي إن تتابع لي غني وإن قل مالي لم أكلفهم رفداً^(٢)
وإني لعبد الضيف مادام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

الصفح والإغضاء

«لشريف الرضى»^(٣)

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه^(٤)

أبي بعد طول الغمز أن يتقوما

(١) يريد أنهم إذا أرادوا به شراً أراد بهم خيراً (٢) الرشد العطاء

(٣) «الشريف الرضى»

ت ٤٠٦ هـ

هو أحد شعراء الطبقة الأولى وله في شعره مذهب خاص به لم يتبع فيه
أحداً قد جمع فيه بين البداوة والحضارة والجلال والجمال وإن صح أن له
في كتاب نهج البلاغة شيئاً كثيراً كان أكتب الكتاب كما أنه أشعر الشعراء
(٤) زاغ مال وكعوب الرمح عقده

تقبلت منه ظاهراً متباجاً
 وأدج دوني باطناً متجهماً^(٥)
 ولو أتني كشفته عن ضميره
 أقمت على ما بيننا اليرم مأتما
 دع المرء مطوياً على ما ذمته
 ولا تنشر الداء العضال فتندما
 إذا العضو لم يؤملك إلا قطعه
 على مَضَض لم تُبق لحماً ولا دماً

أدب الحديث «لأبي تمام»

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه
 وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
 وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به^(١)

(٦) تجهمه استقبله بوجه كرية

(١) في هذا البيت أدب رقيق من آداب العشرة قل من الناس من
 يستطيع الصبر عليه ولا أعرف في الرياء نوعاً مستحسنًا غير هذا النوع

الرياء

« لابن الرومي »

اعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذا لفاح الحمأ اللاذب^(١)

العفة

« لليلي الأخيلية »^(٢)

وذى حاجة قلناله لاتبح بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب و خليل^(٣)

(١) الحمأ الطين المتن واللاذب اللاصق المتداخل

(٢) « ليلي الأخيلية »

« ت ٨٠ »

لا شك أنها والخنساء أشعر الشواعر والليل من الشعر في المديح والغزل
ما أشبه شعر الرجال أحيانا (٣) لا أعرف كناية أفضل من هذه
الكناية في قولها وذى حاجة والبيت الثاني أفضل مقال يؤتى به دليلا
على شرف أخلاق المرأة العربية ومعرفتها بالأصل الأول من أصول
حقوق الزوجية وإنما إن لم تنفر من الفحشاء عفة فإنها تجتنبها وفاء

القناعة

«لابن الرومي»

مرحباً بالكفاف يأتى عَفِيًّا^(١) وعلى المُتَعَبَات ذَيْلُ العَفَاءِ
ضَلَّةٌ لأمرٍ يشمرُّ في الجمرِ مع لعيشٍ مشمرٍ للفناءِ
يحسب الحظ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاءِ
ليس في آجل النعيم له حظ وما ذاق عاجل النعماءِ
ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداءِ
حسبُ ذي إربة^(٢) ورأى جليَّ نظرت عينه بلا غُلُوءٍ^(٣)
صحة الجسم والجوارح والعرض وإحراز مُسَكَّةِ الحُوبَاءِ^(٤)

القناعة

«لبعض الشعراء المتقدمين»

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سلم دواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجْراً

(١) عَفِيًّا أى عَفْوًا (٢) الأربة الدهاء والحيلة (٣) الغلواء الغلو
(٤) المسكة ما يمسك النفس من غذاء وغيره والحوباء النفس

إذا ما أتت من صاحب لك زلةً فكن أنت محتالاً لزلة عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سدخلةً فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

حب البنين

«لبعض الشعراء المتقدمين»

الولا أمانة لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي أن اليتيمة يحفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها فيهلك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

كتمان السر

«لمسكين الدارمي»^(١)

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها^(٢)

(١) «مسكين الدارمي»

ت ٩٠ هـ

كان شاعراً فحلاً مجيداً وكان شريفاً عالى الهمة يتشيع لمعاوية وينصره
وهو أول من سهل عليه مفاتيح الناس ببيعة ولده يزيد من بعده إذ قال
إذا المنبر الغربى خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
(٢) يقال الخمر جماع الاثم لأنها جامعة لكل أصنافه

لكل امرئ شعب من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها (٣)
يظنون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعى الرجال انصداعها

الشورى

« لبشار بن برد »

إذا بلغ رأى النصيحة فاستعن بعزم نصيح أو بتأييد حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة مكان الخوافى نافع للقوادم (٢)
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن تؤوماً فإن الحزم ليس بنائم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وحارب إذا لم تعط إلا ظلاماً شبا الحرب خير من قبول المظالم
وأدن على القربى المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امرئاً غير كاتم
فانك لا تستطرد الهم بالمنى ولا تبلغ العليا بغير المكارم
إذا كنت فرداً هزك (٣) القوم مقبلاً وإن كنت أدنى لم تفز بالغنائم

(١) اطاع لا مر عليه (٢) غضاضة مذلة والخوافى صغار الريش
في مؤخر الجناح والقوادم كباره في مقدمه . يريد أن المستشير لا يجمع به
أن يزدري برأى لمشير قرب صغير يحتاج إليه كما تحتاج القوادم إلى الخوافى
(٣) يقال هره الكلب إذا نبجه

وما قرع الأقوام مثل مشيع^(١) أريب ولا جلى العمى مثل عالم

المغفرة

« لأبي العتاهية »^(٢)

إني شكرت لظالمى ظلمى وغفرت ذاك له على على
ورأيت أسدى إلى يداً لما أبان بجهله حلى
رجعت إساءته عليه وإحسانى فعاد مضاعف الجرم
وغدوت ذا أجر ومحمد وغدا بكسب الظلم والاثم
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسىء إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه حتى بكيت له من الظلم

إكرام النفس

« لابن مطير »^(٣)

ومن يتبع ما يعجب النفس لم يزل مطيعاً لها فى فعل شئ يضرها

(١) المشيع الشجاع

(٢) « أبو العتاهية » ت ٢١١ هـ

هو أبو إسحق إسماعيل بن القاسم شاعر مطبوع رقيق مجيد فى الزهد
والمديح والحكمة يعد فى طبقة بشار وأبى نواس ولا أحسبه يبلغ هذا المبلغ كله

(٣) « ابن مطير » ت ١٦٩ هـ

هو الحسين بن مطير من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وشعره
على قلته غاية فى المتانة والعدوبة وله فى النسيب أرق الشعر وأسلسه

فنفسك أكرم من أمور كثيرة فمالك نفس بعدها تستعيرها

السعادة النفسية

« لبشار »

وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

الحرية

« لأبي تمام »

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها لسانى معقولا وقلبي مقفلا
وإن صريح الحزم والرأى لا مرئ إذا بلغته الشمس أن يتحولا

عاقبة الجهالة

« لأبي نواس » (١)

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت (٢) سرح اللهو حيث أساموا

(١) « أبو نواس »

ت ١٦٨ هـ

هو الحسن بن هانئ الحكمي سيد المحدثين والمبتكر الأول لحضارة
الشعر ومدنيته وصاحب المعاني الغريبة التي لم يسبق إليها في الأثواب الرقيقة
التي لا يجارى فيها (٢) سام ناقته أرهاها

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عَصَاة كل ذاك أثم

الصدقة الكاذبة

« لا بى تمام »

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله فى هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطن متجهم

الثقة

لبعض الشعراء المحدثين

فى انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتهما وقلت ما قلت غير محتشم

مكارم الأخلاق

« للشريف الرضى »

يصول على الجاهلون، وأعتدى ويجم فى القائلون وأعرب
يرون احتمالى غصةً ويزيدهم لواعج ضغن أنى لست أغضب
وقور فلا الألمان تأسر عزمى ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر القوارص شيمتى كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجا إذا نال منى العاضه (١) المتأوب

(١) العاضه الكاذب

ولست براض أن تمس عزائي فضالات ما يعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب جاني بحفظها زمانى وصرف الدهر نعم المؤدب

القناعة

« لأبى تمام »

من زاحف الأيام ثم عباً (١) لها غير القناعة لم يزل مفلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جاز سلطان القنوع وحكمه فى الأرض ما كان القليل قليلا

الصديق

« لأبى العتاهية »

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته صفالى ولا إن صرت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

كلمات فى الحكمة

« للمعرى » (٢)

أياتى نبي يجعل الخمر طَلَّة (٣) فتحمل شيئاً من همومى وأحزاني

(١) عباً أعد وهياً

(٢) « المعرى » ت ٤٤٩ هـ

هو أحمد بن سليمان الشاعر الفيلسوف المشهور غاب عنه على شعره فلم
يئى مطبوعاً إلا نادراً على أنه أقدر من نظم الحكمة فى الشعر وقل أن يجيد
ذلك أحد (٣) طلقة حللاً

وهيات لوحلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم ^(١) كفة ميزاني

الملك أجير الرعية

ملّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعذّوا مصالحها وهم أجراؤها
رياء الوعاظ

رويك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحزّم فيكم الصهباء صباحا ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوتُ بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتي ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

لا علاج لشرور العالم

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالحسر للعداء
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

سلطان العقل

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

(١) الحلم هنا العقل

رياء العباد

لعل أناساً في المحاريب خوفوا بأى كناس في المشارب أطربوا
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقرب

شُرور العالم

يَحْسَنُ مَرَأَى لِبْنَى آدَمَ وَكُلُّهُمْ فِي الذُّوقِ لَا يَعْذِبُ
مَا فِيهِمْ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلُمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

الموت طهارة من الحياة

أَيَا جَسَدَ الْمَرْءِ مَاذَا دِهَاقٌ وَقَدْ كُنْتَ مِنْ غَنَصِ طَيْبٍ
تَصِيرُ طَهُوراً إِذَا مَارَجَعْتَ إِلَى الْأَصْلِ كَالْمَطَرِ الصَّيْبِ

قسمة الأرزاق

لَقَدْ جَاءَنَا هَذَا الشِّتَاءُ وَتَحْتَهُ فَقِيرٌ مَعْرَى أَوْ أَمِيرٌ مَدْوَجٌ
وَقَدْ يُرْزَقُ الْمَجْدُودُ أَقْوَاتُ أُمَّةٍ وَيَحْرَمُ قَوْتاً وَاحِداً هُوَ أَحْوَجُ

ذم البطالة

وَيُعْجَنِي دَابُّ الَّذِينَ تَرَهَّبُوا سِوَى أَكْثَرِ النَّفُوسِ الشَّحَّاحِ
فَمَا حَبَسَ النَّفْسَ الْمَسِيحُ تَعَبِداً وَلَكِنْ مَشَى فِي الْأَرْضِ مَشِيَّةً سَاحِ

الرفق بالحيوان

لَقَدْ رَأَيْتُ مَغْدَى الْفَقِيرِ بِجَهْلِهِ عَلَى الْغَيْرِ ضَرْباً سَاءَ مَا يَتَقَلَّدُ

يحمّله مالا يطيق فإن ونى أحال على ذى فقرة يتجلد

أين الحقيقة

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة

أى المعانى بأهل الأرض مقصود

لم تعطنا العلم أخبار يحى بها

نقل ولا كوكب فى الأرض مرصود

وايضاً ما خضر من نبت الزمان بنا

وكل زرع إذا ما هاج محصول

حقيقة الإيمان

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد

وإنما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

خرافات النساء

سألت منجمها عن الطفل الذى فى المهد كم هو عائش من دهره

فأجابها مئة ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها فى شهره

راحة الموت

قدم الفتى ومضى بغير تئبة كهلال أول ليلة من شهره

لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة فى دهره

العفة

أحسن جواراً للفتاة وعُدها أخت السماك على دنو الدار

كتجاور العينين لن تتلاقيا وحجاز بينهما قصير جدار

بقاء المادة

مضى الأنام فلولاً علم حالهم لقلت قول زهير أية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادى أنهم هلكوا

الصبر على الأذى

إذا قال فيك الناس مالا تحبه فصبراً يني ود العدو إليكا
وقد نطقوا مينا على الله وافقروا فما لهم لا يفترون عليك

الدين المعاملة

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لاسبعا فلسنت بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطاعه لم يلف بالمتماسك

تأويل الفقهاء

جهلت أقاضى الرى أكثر ما ثما بما نصه أم شاعر يتغزل
فكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل
فما لعذاب فوقكم لا يعمكم وما بال أرض تحتكم لا تُزلزل

تعليم المرأة

إن نشأت بنتك في نعمة فالزمها البيت والمغزلا

ذلك خير من شوار لها ومن عطايا والد أجزلا

الرفق بالعميان

عميانكم قرأت على أجدائكم وأتوا لكم بالبر من آتاكم

أحيائكم بخلت عليهم بالندی فبغوه بالفرقان من موتاكم

مساعدة الضعفاء

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه لتهديه وامنن بفهامك الضمما
ولا تلك بمن قرب العبد شارخاً^(١) وضيعة إذ صار من كبرهما^(٢)

حكم العادة

إذا ألفت الشيء استهان به الفتى فلم يره بؤسى يُعد ولا نُعمى
كانفاقه من عمره ومساغه من الريق عذبا لا يحس له طعما
الجرام

لا تحدث القتل في كف ولا قدم ولا تعرض مدى الدنيا السفك دم
وخل من صور الأشباح مقتدراً يُحلها فهو رب الدهر والقدم

خراقة الرمالين

أما لأمير هذا المصر عقل يُقيم عن الطريق ذوى النجوم
فكم قطعوا السبيل على ضعيف ولم يعفوا النساء من الهجوم
إذا افكر لليب رأى أموراً ترد الضاحكات إلى الوجوم

ذم الشراب

يقول الناس إن الخمر تودى بما في الصدر من هم قديم

(١) الشارخ الفتى في أول صباه (٢) الهم الشيخ الفاني

ولولا أنها باللب تودى لكنت أخ المدامة والنديم

تبرج النساء

شرُّ على المرأة من حمامها

إرسالك الفاضل من زمامها

وهشها تضرب في أكمامها

يفوح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد في إمامها

تأتم والخيبة في ائتمامها

ذم التناسل

يا أمة في التراب هامة تجاوز الله عن سرائركم

ياليتكم لم تطوا إماءكم ولادنوتم إلى حرائركم

إن استرحتم بما تكابده فنحن من بعد في جرائركم

حكمة الزكاة

ياقوتُ ما أنت ياقوتٌ ولا ذهبٌ فكيف تُعجزُ أقواماً مساكيناً

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعداد مساكيناً

الحلم

« لبعض الشعراء المتقدمين »

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أتمنى الشرَّ والشرَّ تاركى ولكن متى أُحمل على الشرِّ أركب

ألم الموت

« للبتنى »

إلْفُ هذا الهواء أوقعَ في الآن نفس إن الحمام مرَّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

حب الحياة

« للبتنى أيضاً »

أرى كلَّنا يبغي الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده اتقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسانُ هذا لذاذنا

الشجاعة

« للبتنى أيضاً »

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تكون جباناً
كل مالم يكن من الصعب في الآن نفس سهل فيها إذا هو كانا

الأشرار حرب الأخيار

« لبعض الشعراء المتقدمين »

لقد زادنى حباً لنفسي إتنى بغيض إلى كل امرئ غير طائل

إذا مارآنى قطع الطرف دونه ودونى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق فى عينه كفة حابل
وإنى شقى باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشماثل

تحين الفرصة

« لآبى العتاهية »

كم من مؤخر غاية قد أمكنت لغد وليس غد له بموات
حتى إذا فاتت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حشرات
تأتى المكاره حين تأتى جملة وأرى السرور يحىء فى الفلتات

الإباء

« لبعض الشعراء المحدثين »

لا تشكون لعاذل أو عاذر حالك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين غضاضة فى النفس مثل شماتة الأعداء

الحب المعتدل

« للشريف الرضى »

أحبك بالطبع البعيد من الحجا وأقلاك بالعقل البرىء من الخبل
فأنت صديق إن ذهبتُ إلى الهوى وأنت عدوى إن رجعتُ إلى العقل

عزة النفس

«لبعض الشعراء المتقدمين»

تكلفني إذلال نفسي لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول سل المعروف يحيى بن أكرم فقلت سليه رب يحيى بن أكرما

كلمات

«لمحمود باشا سامى البارودى»^(١)

دخائلى القلوب

تحملت خوف المن كل رزيئة وحمل رزايا الدهر أحلى من المن
وعاشرتُ أخذانا فلما بلوتهم تمنيت أن أبقى وحيدا بلا خدن
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت عليه من البغضاء عاش على ضغن
يرى بصرى من لا أود لقاء، وتسمع أذن ما تعاف من اللحن

تقلبات الأيام

ولقد تبينتُ الأمور بغيرها وآتى على النقض والإبرام
فاذا السكون تحرك وإذا الخمو د تلهب وإذا السكوت كلام
وإذا الحياة ولا حياة منية تحي بها الأجساد وهى رِمام

«البارودى»^(١)

هو شيخ شعراء هذا العصر وأولى من أحيا سنة الشعر العربى بعد
مادارت الأيام دورتها

هذا يحلّ وذاك يرحل كارهاً عنه فصلح تارةً وخصام
فالنور لو بينت أمرك ظلة والبده لوفكرت فيه ختام

جريان المقادير

يودّ الفتى ما لا يكون طماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الإنسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سرّ محجب

شروع العالم

(١) «لأحمد شوقي بك»

أناس كما تدرى ودنياً بجالها ودهرٌ رخي تارةً وعسيرٌ
وأحوال خلق غابر متجدد تشابه فيها أولٌ وأخيرٌ
تمر تباعاً في الحياة كأنها ملاعبٌ لا تُرخي لهنّ ستورٌ
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى وغش وإفك في الحياة وزورٌ
وقام مقام الفرد في كل أمة على الحكم جم يستبد غفيرٌ
وحور قول الناس مولى وعبدته إلى قولهم مستأجرٌ وأجيرٌ

(١) «شوقي»

أشهر شعراء العربية في العصر الحاضر وأقدرهم على التصورات البديعة
والخيالات الشعرية العالية وهو يشبه المتنبي في أنه يرتقى حتى لا يساويه أحد
وقد يصل أحياناً إلى منزلة لا يرضى بها من هو في منزلته

كلمات

« لإسماعيل باشا صبرى (١) »

الموت والحياة

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأثر ض تتم آمنا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ م التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالمات ليس بمباح منك إلا ماتتسكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنوان مانص في غضون الكتاب
وحياة المرء اضطراب فإن مات فقد عاد سالما للتراب

راحة الموت

ياموت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات منى
ببنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

الوفاء

إذا خاتنى خل قديم وعقنى وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانشيت ولم أرم

(١) « لإسماعيل باشا صبرى »

أحد شعراء الطبقة الأولى فى هذا العصر ويمتاز بجمال مقطعاته وعذوبة أسلوبه إلى ما لا يجاريه فيه بجمار وحسن تصوراته وخلاصة خيالاته وهو أجود ما يكون إذا نطق بكلمة الحكمة أو أرسل بيت النسيب

سجن الفضيلة

« لحافظ إبراهيم »

نعمنَ بنفسى وأشقيتني فياليتهنَّ وياليستني
خلال نزلنَ بخصب النفوس فرويتهنَّ وأظلماتني
تعودن مني آباء الكريـم وصبر الحليم وتيه الغنى
وعودتهنَّ نزال الخطوب ب فما يثنين وما أثني
إذا ما لموت بليـل الشبا ب أهينَ بعزى فنهني
فما زلت أمرح في قدهن ويمرحن مني بروض جنى
إلى أن تولى زمان الشبا ب وأوشك عودى أن ينحني
فيانفس إن كنت لاتوقـن ين بمعقود أمرك فاستيقني
فهذه الفضيلة سجن النفوس وأنت الجديرة أن تسجنني

١
٢٣٨

بقرة

قسم المنشور

وصايا حكيمية

« من أعرابية لولدها »

أى بنى إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين .
وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا وخلق أن لا يثبت الغرض
على كثرة السهام وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته حتى يهَى^(١)
ما اشتد من قوته . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك وإذا
هزرت فاهز زكريما يلبس لك ولا تهز زائما فين الصخرة لا ينفجر
ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنات من غيرك فاعمل به
وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه .
ومن كانت مودته بشره وخائف ذلك منه فعلمه كان صديقه منه على
مثل الريح فى تصرفها . والذئب أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن
جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحيلة ريطانها وسر بالها^(٢)

(١) وهى ضيف (٢) الريغة كل ثوب رقيق يشبه الملحفة

والسربال القميص

أدب الزوجة

« لأعرابية توصى ابنتها ليلة البناء بها »

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك
ولكنها تذكرة الغافل . ومعونة العاقل . أى بنية إنك فارقت بيتك
الذى منه خرجت . وعشك الذى فيه درجت . إلى وكر لم تعرفه
وقرين لم تألفه . فكونى له أمة يكن لك عبدا واحفظى له خصالا
عشرا . أما الأولى والثانية فاصحبه بالقناعة . وعاشريه بحسن السمع
والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه
منك على قبيح . ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة
فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة . وتنغص النوم
مغضبة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله . والإرعاء على حشمه
وعياله . وملاك الأمر فى المال حسن التقدير . وفى العيال حسن
التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا . ولا تفشين له
سرا . فإنك إن خالفتيه أو غرت صدره . وإن أفشيت سره لم تأمنى
غدره . ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما . والكآبة بين يديه
إذا كان فرحا . فإن الخصلة الأولى من التقصير . والثانية من التكدير
وكونى أشد الناس له إعظاما . يكن أشدهم لك إكراما . واعلمى أنك

لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهو اه على
هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك

كلمات فى الأخلق

« على بن أبى طالب ^(١) »

علو الهمة

أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقطك إلى الرغائب فإنك لن
تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ولا تكن عبد غيرك وقد
جعلك الله حرا وما خير خير لا ينال إلا بشر ويسر لا ينال إلا بعسر
وإياك أن تؤجف بك ^(٢) مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة وإن
استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنك مدرك
قسمك وأخذ سهمك وإن اليسير من الله سبحانه وتعالى أكرم
وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كل من عنده

حسن العشرة

احمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة وعند صدوده

(١) « على بن أبى طالب » ت ٤١٢ هـ

هو أفصح قرشى إذا خطب أو كتب ولصدقه وإخلاصه أثر فى تأثير
كتاباته عامة وزهدياته خاصة (٢) وجف البعير عدا وأسرع

على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو
وعند شدته على اللبن وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد
وكانه ذو نعمة عليك وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن
تصنعه مع غير أهله

الاعتدال

أعجب ما في الإنسان قلبه وله مواد من الحكمة وأضداد من
خلافها فإن سرح له الرجاء أذله الطمع وإن هاجه الطمع أهلكه
الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف وإن عرض له الغضب اشتد
به الغيظ وإن سعد بالرضا نسي التحفظ وإن أتاه الخوف شغله
الحذر وإن اتسع له الأمن استلبته الغرة ^(١) وإن أصابته مصيبة
فضحه الجزع وإن استفاد مالا أطغاه الغنى وإن عضته فاقة بلغ به
البلاء وإن جهد به الجوع قعد به الضعف وإن أفرط في الشبع كظته
البطنة فكل تقصير به مضر وكل إفراط له قاتل

(١) الغرة الغفلة

١٥١
١٥١

١٥١

أدب الحاشية

لأحد الأمراء العباسيين

في وصيته إلى أحد رجال خاصته

يا عبد الله كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على
التماسه بالكلام فانهم قالوا إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك
الصمت فتكلم . واعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبار الفطن المتفقد
فإن ابتليت بصحبته فاحترس وإن عوفيت فاشكر الله على السلامة
فإن السلامة أصل كل نعمة ؛ لا تساعدني على ما يقبح بي ولا تردن
عليّ خطأ في مجلس ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ودع عنك
كيف أصبح الأمير وكيف أمسى وكلني بقدر ما أستنطقك واجعل
بدل التقريظ لي صواب الاستماع مني . واعلم أن صواب الاستماع
أحسن من صواب القول وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء
وأرني فهمك إياه في طرفك ووجهك فما ظنك بالملك وقد أحلك محل
المعجب بما يسمعك إياه وأحلمته بمحل من لا تسمعه منه ولا تستدع
الزيادة من كلامي بما تظهر من استحسان ما يكون مني فمن أسوأ
حالا ممن يستلذ كلام الملوك بالباطل

كلمات في الآداب

«ابن المقفع» (١)

دعوى العلم

استحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل
مصرحاً أو معترضاً وإن استطلت على الألفاء فلا تشقن منهم بالصفاء
فإن آنت من نفسك فضلاً فتخرج أن تذكره أو تبديه . واعلم أن
ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر
 مما يقرر لك من الفضل . واعلم أنك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك
منك بالوجه الجميل المعروف . ولا يخفين عليك أن حرص الرجل
على إظهار ما عنده وقلة وقاره في ذلك باب من البخل واللؤم وأن
من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم

أصول الأخلاق

يطلب الأدب اعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس

(١) «ابن المقفع»

هو عبد الله بن المقفع أ كتب كتاب العربية في الأدب والحكمة
ومذهبه في الكتابة أعدل المذاهب وأقومها لطلاوته وسلاسته وبعده عن
الأسباع والتكاليف ولا يوجد له نظير في طريقته إلا الجاحظ وعبد الحميد
وسهل بن هارون وقليل من أمثالهم

يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون درّكهم درّكاً . ومن
أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول وإن أصاب الفصل بعد إحراز
الأصل فهو أفضل . فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على
الصواب وتجنب الكبائر وتؤدى الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناء
به عنه طريقة عين ومن يعلم أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت أن
تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل . وأصل
الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب
والباه إلا خفافاً وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره
والانتفاع بذلك فهو أفضل . وأصل الأمر في البأس ألا تحدث
نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ثم إن قدرت أن تكون
أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل . وأصل
الأمر في الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها ثم إن قدرت أن تزيد
ذا الحق على حقه وتطول على من لاحق له فافعل فهو أفضل . وأصل
الأمر في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ ثم إن قدرت على بارع
الصواب فهو أفضل . وأصل الأمر في المعيشة ألا تنى عن طلب
الحلال وأن تحسن التقدير بما تفيد ^(١) وما تنفق ولا يغرّنك من
ذلك سعة تكون فيها فإن أعظم الناس في الدنيا خطراً أحوجهم

(١) تفيد : أى تستفيد

إلى التقدير . والملوك أحوج الى التقدير من السوق لأن السوق قد يعيش بغير مال والملوك لا قوام لهم إلا بالمال ثم إن قدرت على الرفق واللف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل

شرف المروءة

لا يعجبك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطة أو شك أمور الدنيا زوالا ولا يعجبك إكرامهم إياك للنسب فإن الأنساب أقل مناقب الخير غناء عن أهلها في الدين والدنيا ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك فإن المروءة لا ترايلك في الدنيا والدين لا يزالك في الآخرة

سياسة الاقتصاد

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للههم وإن مالك لا يغني الناس كلهم فاختص به ذوى الحقوق وإن كرامتك لا تطيق العامة فتوج بها أهل الفضائل وإن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيها وإنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسده إلى نصيبه منهما فأحسن قسمتهما بين دعتك وعملك واعلم أنك ماشغلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضربك في المعجز عن أهل الفضل وما شغلت من ليلك

ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة

الشورى

لا يُقْذَفَنَّ في رُوعِكَ أَنَّكَ إِنِ اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْكَ
الحاجة إلى غيرِكَ فَإِنَّكَ لَسْتَ تَرِيدُ الرَّأْيَ الاِفتخارَ بِهِ وَلَكِنْ تَرِيدُهُ
لِلانْتِفَاعِ بِهِ وَلَوْ أَنَّكَ مَعَ ذَلِكَ أَرَدْتَ الذِّكْرَ كَانَ أَحْسَنَ الذِّكْرَيْنِ
وَأَفْضَلَهُمَا عِنْدَ أَهْلِ الْفَضْلِ أَنْ يُقَالَ لَا يَتَفَرَّدُ بِرَأْيِهِ دُونَ اسْتِشَارَةِ
ذَوِي الرَّأْيِ

رضى الناس

إِنَّكَ إِنِ تَلْتَمِسَ رِضَاءَ جَمِيعِ النَّاسِ تَلْتَمِسُ مَا لَا يُدْرِكُ وَكَيْفَ يَتَفَقَّ
لَكَ رَأْيُ الْمُخْتَلِفِينَ وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى رِضَاءِ مَنْ رِضَاهُ الْجُورُ وَإِلَى
مُوَافَقَةِ مَنْ مَوَافَقَتُهُ الضَّلَالَةُ وَالْجَهَالَةُ فَعَلَيْكَ بِالْتِمَاسِ رِضَاءِ الْإِخْيَارِ
مِنْهُمْ وَذَوِي الْعَقْلِ فَإِنَّكَ مَتَى تَصُبْ ذَلِكَ تَضَعُ عَنْكَ مَوْؤَنَةً مَاسِوَاهُ

الصداقة

اِيْذِلْ لَصَدِيقِكَ دِمَكَ وَمَالَكَ وَلِمَعْرِفَتِكَ رِفْدَكَ وَمَحْضَرَكَ وَلِلْعَامَةِ
بِشْرَكَ وَتَحَنُّنَكَ وَلِعِدْوَكَ عَدْلَكَ وَاضْنِ بِدِينِكَ وَعَرْضَكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ

الصبر

ذَلَّ نَفْسُكَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَارِ السُّوءِ وَجَلِيسِ السُّوءِ فَإِنْ ذَلِكَ
مَالًا يَكَادِي خَطْئَكَ فَإِنَّ الصَّبْرَ صَبْرَانِ صَبْرَ الرَّجُلِ عَلَى مَا يَكْرَهُ وَصَبْرَهُ

عما يحب فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً . واعلم أن اللثام أصبر أجساداً والكرام أصبر نفوساً وليس الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وقاحاً أو رجله قوية على المشي أو يده قوية على العمل فإنما هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلباً والأمور محتملاً وفي الضر متجملاً ولنفسه عند الرأي والحفاظ مر تبطاً وللحزم مؤثراً وللهمم تاركاً وللشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً

سكر الرضى والغضب

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهيم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ثم يبلغ به الرضى إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذي الخطر^(١) لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ويعطى من لم يكن يعطيه ويكره من لاحق له ولا مودة فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أحد أسوأ حالا من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله أو يتخبطه المس من يعاقب في غضبه غير من أغضبه ويحبو

(١) الخطر : المنزلة والقدر

عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً في صفته

الاحتمال

اعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه وإن سفه السفیه سيطّلع لك
منه فإن عارضته أو كفاأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فاجتنب
أن تحتذى مثاله فإن كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك
معارضته فيما أن تدمه وتمثله فليس ذلك لك

الرفعة في التواضع

إن استطعت أن تنزل نفسك دون عايتك في كل مجلس ومقام
ومقال ورأى وفعل فافعل فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط
إليها نفسك وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه وتعظيمهم
من أمرك مالم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك مالم تزين هو الجمال

الحسد

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون
حسوداً فإن الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أن يوكل بالأدنى فالأدنى من
الأقارب والأكفاء الخللطاء فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير
ما تكون حين تكون مع من هو خير منك وإن غُناً لك أن يكون
عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه وأفضل منك

في القوة فيدفع عنك بقوته وأفضل منك في المال فتفيد^(١) من ماله
وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجأه وأفضل منك في الدين
فتزداد صلاحاً بصلاحه

الصدق

ليعرف إخوانك والعامّة أنك إن استطعت أن تكون إلى أن
تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل فعلت فإن
فضل القول على الفعل عار وهجنة وفضل الفعل على القول زينة
فضول النظر

اعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للبال
وأضرّها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء
ومن البلاء على المغرم بهنّ أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى
ما ليس عنده منهنّ وإنما النساء أشباه وما يرى في العيون والقلوب من
فضل مجهولاتهنّ على معروفاتهنّ باطل وخدعة بل كثير ممن يرغب
عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه وإنما المترغب عما في
رحله منهنّ إلى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في
بيوت الناس بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام وما في رحال
الناس من الأطعمة أشدّ تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء . ومن

(١) تفيد أي تستفيد

العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغولاً بمالم يذق حتى لولم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنًا غير شأن ماذاق وهذا هو الحق والشقاء

الثقة بالأصدقاء

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فإنما هو أحد رجلين . إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنك أقربها من عدوك لشتر يكفيه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى

غرائز الناس

إذا أقبل إليك مقبل بوجه فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له فإن الإنسان طبع على ضرائب أوام فمن شأنه أن يرحل عمن لصق به ويلصق بمن رحل عنه

آفة الفقر

إذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان
يظن به حسناً فإذا أذنب غيره ظنوه وكان للتهمة وسوء الظن موضعاً
وليس من خلة هي للغنى مدح إلا وهي للفقير عيب فإن كان شجاعاً
سمى أهوج وإن كان جواداً سمي مفسداً وإن كان حليماً سمي ضعيفاً
وإن كان وقوراً سمي بليداً وإن كان لسناً سمي مهذاراً وإن كان
صموتاً سمي عيباً

المودة

المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك
كمثل كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الإصلاح والمودة
بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكوز من الفخار
يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً والكريم يمنح مودته عن لُقية
واحدة أو معرفة يوم واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة

الحقد

مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محرّكاً مثل الجمر المسكون إذا لم
يجد حطباً فليس ينفك الحقد مطلقاً إلى العلل كما تبتغي النار الحطب
فإذا وجد علة استعر فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا
خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس

وذهاب الأرواح

الحزم

الرجل ثلاثة حازم وأحزم منه وعاجز . فالحازم من إذا نزل به
الامر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شعاعاً ولم تعى به حيلته ومكيدته
التي يرجو بها المخرج منه . وأحزم من هذا المقدم ذو العدة الذي
يعرف الابتلاء قبل وقوعه فيعظمه إعظاماً ويحتال له حيلة حتى
كأنه قد لزمه فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل وقوعه .
وأما العاجز فهو تردّد وتمنّ وتوان حتى يهلك

المودة الكاذبة

إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما
وهما ذات النفس وذات اليد . فالمتبادلون ذات النفس هم الأصفياء
وأما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم
الاتفاف ببعض ومن كان يصنع المعروف ببعض منافع الدنيا
فإنما مثله فيما يبدل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد
بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه

أدب الحديث

لا تخلطن بالجد هزلاً ولا بالهزل جدّاً فإنك إن خلطت بالجد
هزلاً هجّته وإن خلطت بالهزل جدّاً كدّرتّه غير أنّي قد علمت

موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجُد بالهزل أصبت الرأي
وظهرت على الأقران وذلك أن يتوزدك متورد بالسفه والغضب
فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه
وثبات من المنطق

الهوى

إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب
إلى هواك فخالفه فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى

الكمال الإنساني

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني وكان رأس
مأعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه
فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد وكان خارجاً من سلطان
فرجه فلا يدعو إليه مؤونة ولا يستخف له رأيا ولا بدناً وكان خارجاً
من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة وكان أكثر دهره
صامتاً فإذا قال بذا^(١) القائلين وكان يرى متضعفاً مستضعفاً فإذا جاء
الجُد فهو الليث عادياً وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في وراء
ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً وكان لا يلوم أحداً
على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو

وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ولا يصحب إلا من يرجو عنده
النصيحة وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا
ينتقم من الولي ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون إخوانه
بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أظقت
ولن تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع

الأقسام

إنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال إما مهانة
يحمدها في نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه وأما عى
بالكلام حتى يجعل الأيمان له حشواً ووصلاً وإما تُهمة قد عرفها
من الناس لحديثه فهو يُنزل نفسه منزلة من لا يُقبل منه قول إلا
بعد جهد اليمين وإما عبث في القول أو إرسال اللسان على غير
روية ولا تقدير

﴿ أدب التريية ﴾

« لهارون الرشيد »

في وصية له إلى مؤدب ولده
يا أحر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه
فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير
المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلّمه السنن

وبصره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم
 بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه .
 ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير
 أن تحزنه فتميت ذهنه أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه .
 وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة

﴿الاقتصاد﴾

« للبديع الهمداني » (١)

وهو كتاب أرسله إلى أحد الوارثين
 وصلت رُقعتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير . وأنت بالجزع
 جدير . ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء عن الأثرة رُشد كأنه
 الغي . وقد مات الميت فليحي الحى . فاشدد على مالك بالخنس فأنت
 اليوم غيرك بالأمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيملك .
 تضحك ويكي لك . وقد مَوَّلَكَ مما أَلَفَ بين سُرَاه وسيرِه (٢) .

(١) « بديع الزمان الهمداني »

ت ٣٩٨ هـ

هو من أوائل الكتاب في عصره وأغزرهم مادة في اللغة والأدب
 وأحسن ما كتب مقاماته فهي أفضل من أكثر رسائله كما أنها أفضل
 من كل ما كتب الكتاب من المقامات بعدها (٢) مَوَّلَكَ : جعلك ذامال ،
 والسرى : المشى بالليل ، والسير : المشى بالنهار

وخلّفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره . وسيعجمُ الشيطان عودك (١)
 فإن استلّته رماك بقوم يقولون خير المال ما تلف بين الشراب
 والشباب . وأنفق بين الحباب (٢) والأحباب . والعيش ^{بعد} بين الأقداح
 والقداح (٣) . ولولا الاستعمال . لما أريد المال . فإن أطعمتهم فاليوم
 في الشراب . وغداً في الخراب . واليوم واطرباً للسكاس . وغداً
 واحرباً من الإفلاس . يامولاي ذلك الخارج من العود يسميه العاقل
 فقراً . والجاهل نقراً . وذلك المسموع من الناي هو اليوم في الآذان
 زمر . وغداً في الأبواب سمر . والعمر مع هذه الآلات ساعة .
 والقنطار في هذا العمل بضاعة . وإن لم يجد الشيطان مغمراً في عودك
 من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك . فتجاهد
 قلبك . وتحاسب بطنك . وتناقش عينك . وتمنع نفسك . وتبوء في
 دنياك بوزرك . وتراه في الآخرة في ميزان غيرك . لا ولكن
 قصداً بين الطريقين . وميلاً عن الفريقين . لا منع ولا إسراف .

(١) يعجم : يعض في الأصل يقال عجم عوده إذا عضه بأسنانه
 ليعرف شدته من لينه والمراد هنا سيختبرك الشيطان (٢) حباب
 الشراب فقايعه التي تعلو سطحه (٣) القداح سهام الميسر ويريد هنا
 لعب القمار

والبخل فقر حاضر . وضير عاجل . وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه .
فليكن لله في مالك قسط . وللمروءة قسم . فصل الرحمة ما استطعت .
وقدر إذا قطعت . فلأن تكون في جانب التقدير (١) . خير لك
من أن تكون في جانب التبذير

أيها المحزون

« لمحمد بك المويلحي »

١

لا جدال في أن الحزن من أشد أدواء النفس وأعظم أمراضها
فهو إذا نشب بأظفاره في النفس لا يلبث أن يمزقها تمزيقاً ويشتها
تشتيتاً فترتبك على الإنسان معيشته وتضطرب عليه حياته ويؤثر حزنه
عليه في كل جزئية وكلية حتى يرى الدنيا في عينه أظلم من الدجى وأضيق
من سم الخياط وتكون نفسه كأنها سمكة الحبر فوق صفحة الماء
تسود بما تمججه من جوفها كل مادنا منها والحزين يسود بياض عيشه
بما يمججه عليه من الأحزان والأكدار ولهذا تراهم يشاكلون بين
النفس الحزينة والبدن بما يابسونه من ثياب الحداد . ولما كان داء
الحزن داء يشتمل على النفس كلها وكان عصي العلاج أبنى المراس

وجب أن يعتمد الحكيم في علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المتنوعة كما يفعل الطبيب بالأمراض المستعصية في البدن وأول شرط في نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه فلا نفع لما نعرضه عليك أيها المحزون من علاج الأحزان إن لم تأخذ فيه بطول المواظبة على التدبير والتفكير وكثرة الإمعان وتكرار النظر والأخذ بالتمرن حتى يسرى في النفس وتتغذى به . وإذا كان الإنسان قادراً بقوة التكرار على أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمية والنفسانية ما يدesh الألباب كالذي كان يحمل ثوراً على عاتقه ويعدو به أميالاً في أعياد آثينا كالذي كان يلعب على ثماني رقاع للشطرنج في آن واحد وهو غائب عنها يلعب نوعاً آخر من اللعب في أندية أمريكا فمأولاه بأن يروض فكره ويمرنه على أحكام الفضيلة ويعوده العمل بها حتى تصل به إلى الغاية المقصودة من السعادة . ولا كنتك إذا قرأت ولم تدبر ونظرت ولم تبصر وحفظت ولم تعتبر لم تنتفع بكثرة المطالعات وطول المعالجات

واعلم أن البدن مرتبط بالنفس والنفس مرتبطة بالبدن وإن مرض النفس يؤثر على البدن فيمرضه ومرض البدن يؤثر على النفس فيمرضها وقبل أن ندخل معك في شرح شفاء النفس من أحزانها نبداً بالكلام في وجوب صحة البدن الذي تتوقف عليه صحة النفس . وغاية اجتهاد

الحكيم الذى يرشد الإنسان إلى بلوغ السعادة أن تكون لك نفس
 سليمة فى جسم سليم . ويلزم لصحة البدن أن يجتنب الإنسان كل
 إفراط فى الشهوات وفى كل مامن شأنه أن يعقب اضطراباً فى الفكر
 وأن يعود الإنسان بدنه على الرياضة فى كل يوم ساعتين على الأقل
 فى الهواء النقي وأن يكثّر من الاستحمام بالماء البارد وأن يتعهد إفراز
 الأخلاط الزائدة على القانون المطلوب وأن يكثّر من الحركة فإن الحياة
 فى الحركة وإذا نظرت إلى البدن من داخله وجدت ما فيه من الأحشاء
 والأعضاء فى حركة مستديمة فترى القلب يقذف بمجموع ما فى الجسم
 من الدم إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة فى ثمانى وعشرين ضربة
 من ضرباته وتجدد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة
 البخار وتشاهد الأمعاء تنبسط وتنقبض . وكذلك فى الجسم أعضاء
 وظيفتها الامتصاص والإفراز فى آن واحد على الدوام وللخ حركتان
 عند كل ضربة من ضربات القلب وعند كل استنشاق للنفس فإذا
 ضعفت حركة البدن من ظاهره كماهى الحال عند الذين يعيشون عيشة
 الرفه لم يتم التوازن بينها وبين الحركات التى فى باطنه ووقع البدن فى
 الاختلال لأن حركة الباطن تحتاج إلى المساعدة بحركة الظاهر والحركة
 فى الباطن تطلب الحركة فى الظاهر ليستقيم النظام ولا يختل فى البدن
 والنفس معاً ولا ندوق طعم الحياة ولا نصل إلى شىء من السعادة التى

سخرها لنا الخالق في حياتنا إلا بهذا النظام. وقد ترى الرجل ساكن الجسم
وصدره يغلي بالغيط ويفور بالحقد فإذا دام على السكون لم تأمن عليه سوء
العاقبة من ذلك الاختلال ولهذا فإنهم ينصحون الإنسان إذا غضب
أن يأتي بحركة في بدنه وفي الحديث الشريف (إذا غضب أحدكم
فليتوضأ وفي كلام أرسطو (فليستحم بالماء البارد) وترى الأشجار
لا تسير سيرها الطبيعي في النمو إذا لم تعرضها للهواء تهتز أغصانها
فتساعد الحركة في ظاهرها حركة نموها في باطنها

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء والنظافة والحركة وسواها
واجب والسير به على قانون الصحة متعين لسلامته وسلامة النفس
معه . ولا تعجب الإسهاب منا في هذا الباب فإنه أصل من أصول
معالجة النفس ومما يدلك عليه أنك ترى الشيء في حال انتظام صحتك
فترتاح إليه نفسك وتستلذه ولكنها إذا زارت في حالة من حالات الجسم
المعتلة انقبضت منه وكرهته والشيء واحد بذاته لم يتغير وإنما تغير
نظام النفس باختلال نظام الجسم . ومن هنا تتضح لك صحة القاعدة
المشهورة بأن الأشياء الخارجة عن الإنسان لا قيمة لها في ذاتها وأن
طريقة نظرنا إليها وكيفية قبولنا إياها هي التي تلبسها لباس الحسن أو القبح
وقد أجمع جلة علماء الأخلاق على أن تسعة أعشار السعادة
للإنسان قائمة على اعتدال صحة البدن وحسن المحافظة عليه وأن سلطانه

على النفس عظيم تعطل باعتلاله وتصح بصحته . ونرى كثيراً من
أمراض البدن تؤثر على الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها
على ظاهر البدن فيختل التصور ويتبدل الذهن وتتغير الطباع . ومن
الجنون المحض وسوء عمل الإنسان لنفسه وتعمد الإيذاء لنفسه
والضرر بذاته أن يهمل أمر بدنه ويشغل عنه بسفاسف الأمور
وينهك في سبيل المطالب الباطلة ويجعله فدية للسعي وراء المال
والجاه والعلم العقيم والمجد الزائل واللذة الوقتية

٢

اعلم أن مانحن بصدده من معالجة الأحزان ينقسم إلى قسمين .
معرفة حقائق الأشياء في ذاتها ومعرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام
الباطلة فأخطأت كنه الحقيقة فانقلبت بنا انقلاباً أورثنا الشقاء
والبلاء ورمانا في الأحزان والآكدار . ونتيجة ارتفاع الأحزان
هي حصول راحة الحياة فقد تعين علينا البحث أولاً عن ماهية هذه
الراحة في معيشتنا وعن ماهية الألم وعن حقيقة الخير وحقيقة الشر
وهل هذه الدار دار ألم وشقاء خالية من أسباب السعادة والهناء
أم فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول

إن الله جلت قدرته لم يرد بمخلوقاته شراً في هذه الدنيا ولم يجعلها
مستقراً للألم ومطمورة للعذاب وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل

جعلها لأوليائه دار سعادة وهناء فانية . يرحلون منها إلى دار سعادة
وهناء باقية . قال الله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يَحْزَنُونَ) وإنما نحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ونسود عيشنا بأيدينا
وما فسد الزمان وإنما نحن الفاسدون

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

اشتبهت علينا الأمور واختلطت الأشياء وأخطأنا الحكم وأخذنا
بتضليل المضلين وأباطيل المبطلين فصرنا لا نفرق بين الطيب والخبيث
والخير والشر والالم واللذة والضر والنافع بل أخذنا هذا مكان ذلك
وصبغنا الضد بصبغة ضده فحولناه عن أصله فوقعنا في شر العذاب
ومن خالف الحقيقة يعني فطرة الله التي فطر الناس عليها وخرج عنها
فأجدر به أن لا يلقى في دنياه راحة ولا في حياته سعادة

وكما أنه لا يمكن للطبيب أن يعرف علاج الأمراض وشفاءها
إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو منه
كذلك لا بد لحكيم النفوس من تشريح الأفكار ومعرفة الخطأ
والصواب فيها لنظام صحة النفس

وقد مضى بنا الكلام عن تأثير اختلال صحة الجسم في الفكر وما
يجب الأخذ به في تدبير صحة البدن وتكلم الآن عن تأثير اختلال
صحة النفس في الفكر والجسم معاً وما الواجب أن تأخذ نفسك

به في تدبير الصحة الروحانية فاعلم أن اختلال صحة الفكر مبعثة
الخطأ في الحكم على حقائق الأشياء والغلط في تقديرها وضعف
التمييز بين الصحيح والفساد وصحة التمييز وتوازن الفكر ومعرفة
الأشياء في ذاتها مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم هو مانسميه
عقلاً وهو أحد الأركان الأربعة للفضيلة التي لا تنال السعادة بدونها
وقبل أن ندخل في بيان حقائق الأشياء التي غلب عليها وهم الناس
فاعتبروا الضار منها نافعا والنافع ضاراً يلزم لنا الكلام عن هذه
السعادة المطلوبة من الحياة وهذا الغرض هو الذي اشتغل به الفلاسفة
منذ الدهر الأول وذهبوا فيه مذاهب شتى واختلفوا بينهم اختلافاً
بيناً دعا اليه حب الجدل وميل كل واحد منهم إلى الانتصار لرأيه
حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا للسعادة العظمى مائتين وتسعين وجهاً
كل واحد منها يختلف عن الآخر . والرأيان الغالبان بين تلك الآراء
المختلفة أحدهما أن سعادة الحياة هي ذات الفضيلة وأنه ينبغي للإنسان
أن يسعى اليها بكل وسيلة سواء وصل اليها من طريق الألم أو من
طريق اللذة وثانيهما أن السعادة العظمى هي في اللذة يبلغها الإنسان
من طريق الفضيلة — هنا واسطة وهناك غاية — ومن تأمل في هذين
الرأين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية
والفطرة الإنسانية

إننا إذا تأملنا في أطوار كل ذى روح وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته في الوجود ويميل بطبعه إلى التمتع ويجدها خيراً عظيماً هو ينفر من الألم ويتقيه ويسعى جهده في دفعه عنه ويراه من أكبر الشرور عليه . هذا في حالة صحة الحكم الذى فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفكر وفساده . ولا محل هنا لتعدد البراهين وطول الجدل فالأمر محسوس لانزاع فيه وما كان محسوساً لم يحتاج الى برهان والفرق ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة إلى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج وبين عدم الاحتياج لغير الشرح والوصف فى بسطها والحس هو الحاكم الأول على الإنسان فى جميع أحكامه فلو نزعناه عنه لم يبق لديه شيء من قوة الحكم ولم يدرك التمييز بين ما هو موافق للطبيعة وما هو مخالف لها

واعلم أنه لا يوجد فى العالم من يحتقر اللذة ويكرهها وينفر عنها لأنها لذة فى ذاتها بل لأنه قد ينتج عنها الألم لمن لم يعد لها ويأخذ فيها بحسب أحكام الفضيلة كما أنه لا يوجد إنسان يحب الألم ويبحث عنه للوقوع فيه لكونه ألماً فى ذاته بل لأنه قد ينتج عنه لذة . فترى الإنسان يحتمل كثيراً من الآلام لأجل أن يتوصل بها إلى نتيجة نافعة . وأى الرجلين يكون فى حكم العقل ملوماً ؟ أذلك الذى يبحث عن اللذة التى لا ضرر فى عاقبتها أم ذلك الذى يبحث عن الألم الذى

لا تكون في عاقبته لذة؟ لاشك أننا نلوم كل من غرته جاذبة اللذة
الوقية فعمى عما يلحقها من الآلام والآكدار التي تنزع للنفس عن
استسلامها في قيادة الشهوات كما أننا نلوم أولئك الذين تذهب بهم
رخاوتهم وترفعهم إلى اتقاء الألم بإخلال القيام بالواجب عليهم . وشأن
العاقل في اللذة أنه إذا كان حراً في تناولها ولم يكن له ممانع عنها أن
يتمتع بها ويتخلص من الآلام ولكن إذا اعترضه في هذه الأثناء
واجب من الواجبات الاجتماعية وضرورة من ضروريات نظام
المعاش وجب عليه أن يرفض لذته ويتقدم لتحمل التعب والألم
فإن رفض اللذات العظيمة واحتمال الآلام الخفيفة لدفع الآلام
الشديدة وهو ما يقضى به العقل على الإنسان ويكون عقله ميزانا
يزن به الراجح من المرجح وليست اللذة هنا بالمعنى المشهور بين
الناس بل هي ما يلائم الجسم والنفس ويصل بهما إلى سعادة الحياة
من طريق الفضيلة كما سيأتي الكلام في تنمة تعريفها .

٣

إن اللذة الكاملة التي ننشدها من طريق الفضيلة ونجتهد في
تعريفها لك ليست هي ذلك الإحساس الذي تحس به في أثناء سد
الحاجة بل هي الحالة التي يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم وبعد
إزالة الألم فلا يقال للجائع وهو يلتقم طعامه لقمة بعد لقمة أنه قد بلغ

اللذة وإنما يبلغها عند الانتهاء من الطعام لأنه في أثناء ذلك سائر في طريق رفع الألم لم يصل إلى غايته ولم يبلغها إلا بالشبع الذي يتناول الطعام لأجله فاللذة إذاً في تمام رفع الألم لا في مباشرة رفعه لأنها في مباشرة رفعه غير تامة واللذة التامة هي الراحة التي يجدها الجائع عند الشبع والعطشان عند الارتواء والسهران عقب المنام ولكن الناس بمعزل عن معرفة قدر هذه اللذة التي هي سلامة الجسم من الألم والنفس من الاضطراب ومن جهلهم بها أنهم لا يدركون ما هم فيه من تلك الراحة إلا إذا زالت عنهم ولا يتمتعون بها وهم فيها ولا يتوهمونها إلا في أثناء المسير إليها فتري صاحب الجسم السليم من كل علة لا يدرك أنه في أعظم لذة من الصحة إلا إذا حلَّ به مرض من الأمراض يصرف عنه الحالة التي كان عليها من الراحة فإذا تدرج في أدوار النقاهة من ذلك المرض توهم فيها لذة وإنما حقيقة اللذة هي الرجوع إلى حالته الأولى التي كان غافلاً عنها. وكذلك لا تكون الراحة للبقيد في الحديد عند فك القيود عنه بل عند ما يرجع جسمه إلى الحالة التي كان عليها قبل وضع رجله في القيد وهذا الوهم من أكبر الأسباب التي سؤدت حياة الناس بالأحزان، وجعلتهم يعتبرون أنفسهم في شقاء وهم في نعيم، ويرون أنفسهم في نعيم وهم في شقاء غافلين عن نعمة تلك الراحة التي هي منهي السعادة والتي قيل فيها (ليس للراحة قيمة)

فهى فوق كل قيمة فى الدنيا

فقد تقرر إذا أن المسافة التى يغيب فيها الألم لا المسافة التى يرتفع
فى أثنائها هى اللذة المقصودة لدى الحكماء . والعقل لا يمتنع عليه أن
يدرك الراحة فى حياته على كل حال ولو كان واقعاً فى الألم فإن الألم
إن كان طويل المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة وإن كان
شديداً كان قصير المدة لسرعة الخلاص منه . فالذى يهون على نفسه
تحمل ما لا بد منه من الآلام فى هذه الحياة على موجب هذه القاعدة
إما بتحملها والتمتع براحة فتراتهما فى حالة خفتها أو بتقرب الخلاص
منها فى حالة شدتها هو من يملك راحة الحياة وسعادة الدنيا

وهذه الراحة هى التى لا يتعلق الإنسان بذات الفضيلة ولا يرغب
فيها إلا الوصول إليها كما أنه لا يتعلق بصناعة الطب لذات الطب بل
للتوصل به إلى الصحة التى تنشأ عنه كما أن صناعة الملاحة لا تطلب
لذاتها ولكن للارتفاع بها فى السلامة . والحكمة التى هى صناعة
الحياة إذا لم يكن منها راحة للإنسان فى حياته فهى غير مرغوب فيها
ولا مطلوبة لذاتها

هذا هو تعريف اللذة الذى يخطئ الناس فيه ولا يدركون حقيقة
ولا وصول إليه إلا بالحكمة التى تكشف غطاء الأوهام وتمكن
الإنسان من الحكم الصحيح على أمور الحياة وتنزع عنه غشاوة

الغبوة التي استحكمت فيه حتى صار يتخوف مما لا خوف منه ويحزن
بما لا حزن فيه وهي التي ترشده إلى تقليل الرغبات وترفع عنه
الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم
بالحقائق وتقليدهم على العمى فتتطفئ منه نار الطمع والشره التي أودت
بالأفراد والجماعات وبالأمم بما ولدته فيهم من الأحقاد والأضغان
وما أسعرتة من نيران الفتن والحروب فجعلت الناس في ألم دائم
لا يجدون منه مخلصاً . فالعاقل هو الذي ينفي عنه أسباب الخوف ويقلل
من الرغبات ويرضى بالكفاف ويقصر همه على ما تقضى به الحاجة
الضرورية أو الطبيعة فلا يتولد فيه الشره والطمع الذي هو مجلبة
الأحزان والآلام ومنبع المخاوف والشرور وقد ألمّ بذلك أحد
الشعراء في قوله

مرحباً بالكفاف يأتي عفيفاً	وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لا مرئ يشمر في الجحيم	مع لعيش مشمر للفناء
يحسب الحظ كله في يديه	وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حظ	وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقي وإن كا	ن يرى أنه من السعداء
حسب ذي إربة ورأى جلي	نظرت عينه بلا غلواء
صححة الجسم والجوارح والعرو	ض وإحراز مسكة الخوباء

وقد آن أن نبين غلط الناس في حكمهم على الأشياء واعتبارهم
الخير منها شراً والشر خيراً . وأكبر خطأ لهم نراه خوفهم وفرقهم من
الموت الذي هو رافع الأسقام وآخر الآلام فيعدونه أكبر الشرور
وأعظم الخطوب وسيأتيك الكلام عما يماثل ذلك من حقائق الأشياء

٤

ليس شيء من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض
الفلاسفة (إن كل شيء يقبل الشك) حتى قولي هذا (إن كل شيء
يقبل الشك) ومن بين الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك
يشكون في كل شيء حتى في وجود ذواتهم ويعتبرون الحياة بما فيها
كرؤيا في المنام

ولكن مهما وقع الشك في أمور الحياة فانه يوجد أمر واقع لا دخل
للشك فيه وهو الموت . ومن عجيب أمر الإنسان أن يعتبر ما يراه
من أباطيل الحياة كالحقائق ويعتقد في ما الشك فيه بين واضح إلا
الموت فكأنه يشك فيه

والموت لا يخفى على أحد ممن ترى وكأنه يخفى
ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم بالموت وكان
من هم الفلاسفة كذلك تفكيرهم به وبسط الأقوال في بطلان
الحياة وحقيقة الموت وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة

أجروها بينهم مجرى العادة إلى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يحددونه في كل شهر على مقدار النمر في جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحمله عليه يرشدون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلا ن متواصلان وأن الانسان يمشى في هذه الدنيا وكأنه عابر جسر في طريق عن يمينه فيها الموت وعن شماله الحياة وأنه كما يدب بنموه في الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات في آن واحد وأنه لا بد للعاقل أن يحضره ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة وأن اليقين في أعواد النعش والشك في أساطين القصر. فمن منتهى غباوة الانسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء في أطنا ب البيت ويمحو من ذا كرتة كل سبب يربطه بصفائح القبر . والناس ينقسمون بالنظر إلى ذكرى الموت ثلاثة أقسام قسم لا يتذكر الموت ولا يأتي له على خاطر ولا يلتفت إليه كأنه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء مع البقاء ولا هلاك مع الوجود ولا يحس بهذه الحقيقة أم الحقائق في الدنيا إلا عند المشاهدة والعيان ولا يذكر الموت إلا ريثما تنقضى عنه المشاهدة كأن يشتد به مرض فيتذكر الموت فاذا قام من

مرضه قام وهو لا يتذكر أثراً لتلك الحقيقة وإذا شاهد الموت في أهله
وجيرانه لم يبق ذكره إلا ريثما يطرأ عليه شغلٌ مما من مشاغل الحياة
فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن بعض الناس أن
هذا الذهول راحة من التفكير في الموت الذي هو عندهم شرٌّ من الشرور
والحقيقة أن في هذه المسافات الوجيزة التي يتذكر الذاهل فيها الموت
عند اشتداد المرض عليه أو عند موت أحد من أهله وأصحابه من
أنواع الجزع والفرع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها ويكون
هذا التذكر لديه بمنزلة زلزلة تهدم في لحظة جميع ما بناه في رأسه من
الآمال وما زخره من الأمانى أو هو نفخة الصور تذهب بلبه وربما
أثر ذلك في أعضائه وجوارحه فجعله ثانياً صاحبه أو قريبه في القبر
وقد سمعنا من هذه الحوادث شيئاً كثيراً . ومن شدة ما يصيب أهل
هذا القسم من الفرع والوجل تراهم أكثر الناس حزناً عند فقد
فقيه لهم لا أسفاً عليه ولكن لحزنهم على أنفسهم بتذكر الموت
وهلعهم من أن يسرى عليهم ما يسرى على من بجانبهم وتجدهم أشد
الناس اندهاشاً واستغراباً إذا قلت لهم مات فلان من أصحابكم
كأنك أخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه فهم يبادرونك بقولهم
(وكيف مات) لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت ولكن عن
الموت نفسه ولو قلت لهم إن فلاناً طار في الجو لما وقعوا في الاستغراب

وقوعهم فيه عند الخبر بموته . ومن رأيهم أنهم يعملون كل ما في الوسع
لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت ويدأبون في محو المذكرات به
وأعرف صاحباً لي كان إذا قرأ (بانت سعاد) أغفل منها قول كعب فيها
كل ابن أثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
وأعرف آخر لا يمشى في جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة
ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا ويهرب يبصره عنها
ويستعيز بالله منها ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى
لا تذكر، جدرانها بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت إلى أحدهم
صورة جمجمة من ذهب لبشع منها واستنكرها ولا أبالغ في بعضهم إن
قلت إنه ينفذها ويرفضها وربما عاداك لذلك وسخط عليك لاعتقاده
أنك قصدت به سوءاً في تذكره بهذا الشر العظيم والامر الفظيع
حتى لقد صارت تلك الجمجمة التي بقيت في محافل الماسون من
آثار آبائهم الأولين في وجوب تذكر الموت والتفكير فيه بين أيديهم
اليوم آلة من آلات الإرهاب والتخويف يمتحنون عليها شجاعة
المنضمين إليهم . ولو بحثت في رأس الماسون الجديد عن أثر ما قاساه
في ليلة دخوله من تصنيعهم في التهويل والتخويف لم تجد باقياً منه في
هذه الرأس إلا تلك الجمجمة . وكان في مصر رجل عالم من أكابر
العلماء كان يحجب من يستدعيه من الأمراء والكبراء لغسل من يعزّ

عليهم موته تبركا به فكان مع سعة علمه ودمائة أخلاقه ونظافة ثيابه
ورقة شمائله إذا دخل مجلساً ما من مجالس العظماء انقبص الجميع ونسل
الواحد منهم في أثر الآخر وما ذاك إلا من تخوفهم بأن يتذكروا
ما كان يباشره أحياناً من القيام بغسل الموتى . وأما ما اليوم كبير من
الكبراء قد تهدمت زاوية آبائه وأجداده الذين يعيش في كنف مجدهم
وشرف نسبتهم ويرى نفسه في منتهى السيادة والشرف بالاتصال
بجبل تلك الرفات فهو إلى اليوم يفرع ممن يذكره ببناء المنهدم ويستهل
على نفسه أن يزور المقبرة يوماً لينظر في وجوه ترميمها . ولضرب
الأمثال في هذا الباب مجال متسع لا تستوعبه الرسائل والكتب ويكفي
للإنسان أن ينظر إلى من حوله في كل ساعة من كل يوم فيرى الغريب
العجيب من الشك في اليقين والارتباب في الواقع . وسيأتي الكلام
بعد عن القسمين الآخرين

٥

واعلم أن أهل القسم الثاني من الناس بالنسبة إلى ذكرى الموت
هم أولئك الذين تراهم يخشونه دواماً ويخافونه أبداً ويتولاهم الرعب
منه في كل حين ويتربون وقوعه في كل آن ويعتبرونه هاذم اللذات
ومقوض بناء السعادة . . وأشد ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم
وانتقلوا إلى أوقات فراغهم وصفائهم فيكبدون عليهم تلك اللحظات

التي يختلسونها من أيدي المشاغل اختلاسا ويسودون بياض عيشهم
 بالتخويف الدائم من انتقاله والترقب لقرب زواله . وما أشد ما يكون
 عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة بعد النعمة
 من متاع الدنيا وزينة الحياة وكلما آتاهم الله فضلا ذهلوا عن التمتع به
 ونسوا الشكر عليه فلا يبصر أحدهم ولده إلا ويتغلب على فكره
 التخوف من فقده والحذر من هلاكه أو الترحل قبله ولا يتمتع به
 ولا ينظر إلى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف إلا نظر المغشى
 عليه من كثرة ما يخشاه من حرمانه منه بالانصراف عنه وما عساه
 يكون من حاله بعد زواله وانتقاله . لا يزالون هكذا في حال القلق
 والاضطراب والجزع والفرع والرعب والكدر فتنبض منهم
 النفوس وتطرق الرؤوس وتسقط عليهم الهموم كسفاً من العذاب
 يتململون منه تملل السليم ويتنون تحته أنين المصنف في القيود (مثلهم
 كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم
 وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون .
 أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يحملون أصابعهم في
 آذانهم من الصواعق حذر الموت)

وترى أهل هذا القسم الثاني الذين يذكرون الموت ويخافونه

ويحرصون على الحياة ويحبونها يقضون أوقانهم اشتغالا بالتوقي من
 الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك ولا يكتفون في ذلك بما يدخل
 في طوقهم الاحتراس منه بل ينصرف همهم إلى دفع ما لا دافع له من
 الأقسية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة كالطواعين والأوبئة
 وأمراض العدوى وكالزلازل والصواعق والعواصف ومنهم من
 لا يركب البحر خشية الغرق ولا يسافر في البر خوف مصادمة القطرات
 ومنهم من يقوم من منامه مرة بعد مرة في أنحاء البيت كالغسس
 يفقد أثاث الحجرات ورياشها ليطمئن عليها أن يتصل بها شيء من
 أسباب الحريق فإذا أمن المسكين من ذلك كله واستغرق في نومه
 برهة من ليله ورأى في الرؤيا أن أحد الأموات من أقاربه وأصحابه
 دنا منه أو سلم عليه أو رحب به أو دعاه إليه قام من منامه في أشد
 آلام الفرع كالذي يتخبطه الشيطان من المس لا يهدأ له بال ولا
 يستقر به قرار أينما وجه وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل
 وتصديق الرؤيا ومن غريب المتناقضات أنه مع هذا الترقب والتوجس
 الذي هم فيه إذا ذكرت في مجالسهم اسم الموت أو تلوت عليهم
 (إنك ميت وإنهم ميتون) لووا أعناقهم وتقلصت شفاههم وكادت
 تفف حركات قلوبهم من الكدر والغىظ ونقموا عليك أنك ذكرتهم
 بما لا يغفلون عن ذكره ليلهم ونهارهم ويستبعدون الموت وينكرونها

عليك فلا يكادون يصدقون بموت الفجأة فإذا أخبرتهم بحادثة من هذا القليل أخذوا يتعلمون لذلك العلل ويتمحلون الأسباب ويتحلون للبيت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به وإذا أخبرتهم بموت شاب في غضارة عمره وغضاضة سنه زادوه ماشاءوا من عدد السنين في عمره كما أنهم أولع الناس بإخفاء حقيقة أعمارهم والاجتهاد دائماً في تنقيص سنيها ليغشوا أنفسهم ويطرحوا من فكرهم إمكان المفاجأة من هذا العدو الأحمر في حين الغرة وفي مستقبل العمر وليطمئنوا على التراخي في الأجل

أما سيرتهم وخطبهم في التحرز على أجسامهم والاحتراس على أبدانهم في ليالهم ونهارهم أن يعترىها اعتلال أو يصيبها اختلال فهم يتغالون في ذلك إلى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون على أنفسهم من هبوب النسيم وحرارة الضياء ويحرمون أنفسهم لذة الطعام والشراب ويتوهمون في كل لقمة تخمة وفي كل جرعة غصة ويتخيرون لهم أبواباً خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم وتؤثر شدة الهواجس والوسواس على أرواحهم فتنتهي بسوء التأثير على أجسامهم فتضعف . وحينئذ يأخذون في استعمال الأدوية المختلفة لتقويتها فتزداد بها ضعفاً . ولا يزالون على هذا التخوف والتحرس والتوهم وطوك البداوى لغير علة حتى ينتقل الوهم إلى الحقيقة وتحل بهم الأمراض

التي أعدوا أنفسهم لها وأدنوها نحوهم بأثر التخوف منها والمداومة على تناول تلك الأدوية الشديدة التي تنهك قوى الجسم وتفسد المعدة وتخل نظام التركيب فيستلبهم الطبيب بجهله وطمعه فإذا لم تنته به براعته إلى إراحتهم بالموت عاشوا عيشة كلها آلام وأوصاب إلى أن يقعوا في الموت من خوف الموت ويذهبوا إلى حال سيئهم لاهم تمتعوا بالحياة ولاهم نجوا من الموت . ولا تستبعد أيها القارئ أن أكثر هذا القسم يحدثون الأمراض لأنفسهم بأنفسهم ويعجلون أيامهم بأيديهم فإن للوهم والخوف سلطاناً على النفس والجسم لا يوازيه سلطان في العالم وله أعظم أثر في فساد صحة الإنسان فيختل به نظام الجسم ويؤدي به إلى الهلاك ولذلك لا نرى بدءاً من إسهاب القول فيه وشرح أثره للاعتباه إلى طرحه وإضعاف سلطانه فإن في الإقامة عليه والاسترسال فيه شقاء الروح وسقم الجسم ومنه تسيل ينابيع الأحزان والآكدار وتتفجر عيون الغموم والهموم

٧

تقدم بك القول في شدة تأثير الخوف والوهم وسوء فعله في النفس والجسم وأنه إذا ألقى الإنسان قباده إليه ذهب به في وادي العذاب يميناً وشمالاً وأنه إذا تملك النفس نشبت به في الجسم مخالب الغلل والأسقام حتى تؤدي به إلى الهلاك والفناء . وقد أجمع جلة

العلماء من أطباء العصر الحاضر بعد كشفهم وبحثهم على أن مجرد
التخوف والتوهم يحدث أمراضاً في البدن لم يكن لها من سبب سواه
في الباطن والظاهر . ولا نحل هنا للشرح والبيان في أبحاثهم العلمية
التشريحية وإنما نذكر من ذلك ما يستشهدون به على قواعد العلم
من براهين الحوادث والوقائع التي شاهدوها بأعينهم ومارسوها
بأنفسهم مما لا يقبل الشبهة ولا يدانيه الريب فمن ذلك ما ذكره
من مشاهداتهم

بأشهر أحد الأطباء تشرح ميت مات بداء الكلب فاعتراه من
ذلك تخوف شديد على نفسه من تعلق العدوى به وانتقال جراثيم
المرض إليه واشتد به توهمه فأخل بنظام جسده فتولاه الأرق
وفقد شهوة الطعام وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل وعاف
الشرب فكان إذا اشتد به العطش شرب الماء قسراً عنه يتجرعه
ولا يكاد يسيغه ثم اشتد به الحال فهام على وجهه في الطرق ضالاً
محتبلاً من هول ما هو فيه . وأدرك بعض أصحابه من أهل صناعته حقيقة
حالته وأن بلاءه هو من أثر الخوف والوهم وسوء التصور فأعملوا
جهدهم في تخفيف مابه وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها ومازالوا به حتى
أقنعوه بأنه سليم الجسم من تلك العدوى وأن مابه هو من عمل
التخوف والتوهم فأخذ ينسى بفضلهم تلك الفكرة القائمة به فزالت

عنه تلك الحالة المعترضة وشفى منها شفاء تاما

ومن الأمور المقررة التي لا يكاد يأنس لها التصور أن مجرد
الخوف على ما اجتمعت عليه أقوال الأطباء يولد في الجسم أعراضاً
هي أعراض داء الكلب بذاتها حتى اعتقد أحد مشهورهم أن
الخوف هو سبب الكلب وليس سببه عقر الكلاب ولعابها . ومما
رواه بعضهم أن كلباً مسعراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة
السفر في يومه إلى أمريكا فسافر إليها وغاب خبره عن أهله مدة
طويلة فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة غفل أحدهم فأخبره بأن أخاه
مات من أثر عض الكلب فوق وقع تأثير ذلك عليه كالصاعقة ورقد
مريضاً وظهرت عليه أعراض داء الكلب في أقصى حدتها ولم يزل
كذلك حتى مات

وكتب الأطباء مشحونة بكثير من مثل هذه الحوادث شاهدة
بأن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة
إلا من إخبار من أخبرهم بأن الكلب الذي عضهم كان مسعراً
ولا يمكن للطبيب أن يميز بين الإصابة بالكلب الناشئة عن الوسواس
والإصابة الناشئة عن عدوى الداء . وكمن مرة أنقذ الأطباء كثيراً
من الناس وهم على شفا الموت بحسن مهارتهم في تسلط نفوسهم على
نفوس المرضى وتمكنهم من إقناعهم وإزاحة غمة الوسوسة والتخوف

من رؤوسهم . وقد دعى أحد الأطباء لمعالجة المصابين بالكلب
بعد أن يئس من شفائه جميع رفقاته فأخذ يفحصه فحصاً دقيقاً ثم
مال عليه بعد ذلك ولثم فيه ليحقق له خلوه من ذلك المرض فما
لبث المريض أن شفى من أثر تلك القبلة التي اعتقد بها أن الطبيب
لم يقبله إياها إلا وهو آمن على نفسه من وجود ذلك المرض واتصال
عدواه به (١)

وبالجملة فإن أثر التخوف والوهم على النفس من أشد ما يقاسيه
الإنسان من أنواع الآلام في نفسه . ويمكن لكل إنسان أن يبعده
عنه بقليل من الثبوت وسلامة الاقتناع والتباعد بالفكر عن التدرج
في الهواجس وتحكيم سلطان الخيالات الباطلة عليه . ومن سلم
قيادة فكره إلى الأوهام والخيالات فسدت عليه عيشته وعاش
في ما لا يوصف من الآلام والآكدار يرى الموت في كل لحظة .
والخوف في كل لحظة .

(١) حذفت هنا حكايات لا تخرج في معناها عن هذه الحكاية

الفهرس

صفحة

٢

هدية الكتاب

٣

مقدمة الكتاب

١١

باب الفصاحة والبيان

(قسم المنظوم)

قوة الحجة لأعرابي

١٢

« مع ترجمته »

تهذيب الشعر لعدى بن الرقاع

١٢

« مع ترجمته »

وصف القلم لأبي تمام

١٤

« مع ترجمته »

تهذيب الشعر للبحترى

١٥

« مع ترجمته »

سحر البيان لأبي تمام

« مع ترجمته »

وصف قصيدة لابن الرومى

١٦

« مع ترجمته »

سيرورة الشعر للبتنى

« مع ترجمته »

سهولة الشعر لبشار بن برد

١٧

« مع ترجمته »

شعر فيكتور هيجو لحافظ ابراهيم

« مع ترجمته »

ديوان الفريد دى موسىه لخليل مطران

١٩

(قسم المنثور)

« مع ترجمته »

صناعة الإنشاء لابن المعتز

٢١

الارتاج لأحد الأمراء العباسيين

٢٢

« مع ترجمته »

فصاحة رسول الله للجاحظ

٢٣

فضل البيان للجاحظ أيضاً

٢٤

مقامات الكلام لبعض الكتاب المتقدمين

صفحة

- ٢٤ « مع ترجمته » الأديب غير الكاتب للبرد
- ٢٥ « مع ترجمته » الفصاحة في الأسلوب لأبي هلال العسكري
- ٢٦ « مع ترجمته » دعوى الأدب للآمدى
- ٣١ مناظرة بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى للآمدى أيضاً
- ٣٨ فتنة القول للجاحظ
- ٣٩ فصاحة جعفر بن يحيى لبعض الكتاب المتقدمين
حقيقة البيان لبعض الكتاب المتقدمين
- ٤١ « مع ترجمته » فصاحة القرآن للباقلاني
- ٤٥ « مع ترجمته » إيجاز القرآن للقاضى عياض
- ٤٧ الشعراء المحدثون
- ٤٩ « مع ترجمته » نظرات المنفلوطى لأحمد لطفي بك السيد
- ٥١ الشعر لأحد الأدباء المعاصرين
- ٦١ كلمة في التعريب لحافظ إبراهيم
- ٦٧ الشعراء المعاصرون لخليل مطران
- ٧٩ « مع ترجمته » اللغة والعصر للشيخ إبراهيم اليازجى
- ١٠٠ « مع ترجمته » وصف شعر شكسبير تعريب محمد السباعى
- ١٠٢ « مع ترجمته » الشعر لمصطفى الرافعى
- ١١١ « مع ترجمته » ماهية اللغة لسعادة أحمد فتحى باشا زغلول
- ١٢١ « مع ترجمته » حقيقة الشعر للأمر شكيب ارسلان
- ١٢٦ « مع ترجمته » مقابلة بين الشعر العربى والأفرنجى لنجيب الخداهر
- ١٤٦ « مع ترجمته » نقد ديوان شوقى لمحمد بك المويلحى
- ١٦٨ البيان لأحد الأدباء المعاصرين

صفحة		
١٧٦	« مع ترجمته »	الموازنة بين الشعراء للشيخ محمد المهدي
١٧٩	« مع ترجمته »	ضرورة التعريب للشيخ محمد الخضري
١٨٤		<u>أدوار الشعر العربي لأحد الأدباء المعاصرين</u>
١٨٧		وصف كتاب النظرات لحافظ إبراهيم
١٨٨	« مع ترجمته »	الإشياء والعصر لإبراهيم بك الموياحي
١٩٥		نقد الدرة اليتيمة للشيخ إبراهيم اليازجي
٢٠٣		<u>جوهر الشعر لإبراهيم بك المويلحي</u>
٢٠٨	« مع ترجمته »	وصف نهج البلاغة للشيخ محمد عبده
٢١١		باب الأدب والحكمة
		(قسم المنظوم)
	« مع ترجمته »	الكرم لحاتم الطائي
		الإيثار لحاتم الطائي أيضا
٢١٢	« مع ترجمته »	ذم الغيبة لكعب بن زهير
		ذم الغيرة لبعض الشعراء المتقدمين
٢١٣	« مع ترجمته »	فضل الأناة للقطامي
٢١٤		السعادة لبعض الشعراء المتقدمين
		كرم الضيافة لبعض الشعراء المتقدمين
٢١٥		التجلد لبعض الشعراء المتقدمين
	« مع ترجمته »	القناعة للعتابي
٢١٦		مكارم الأخلاق لبعض الشعراء المتقدمين
٢١٧	« مع ترجمته »	الصفح والاعضاء للشريف الرضي
٢١٨		أدب الحديث لأبي تمام

صفحة

٢١٩

« مع ترجمتها »

٢٢٠

٢٢١

« مع ترجمته »

٢٢٢

٢٢٣

« مع ترجمته »

« مع ترجمته »

٢٢٤

« مع ترجمته »

٢٢٥

٢٢٦

« مع ترجمته »

٢٢٢

٢٢٣

الرياء لابن الرومي

العفة لليلى الأخيلية

القناعة لابن الرومي

القناعة لبعض الشعراء المتقدمين

حب البنين لبعض الشعراء المتقدمين

كتان السرمسكين الدارمي

الشورى لبشار بن برد

المغفرة لأبي العتاهية

إكرام النفس لابن مطير

السعادة النفسية لبشار

الحرية لأبي تمام

عاقبة الجهالة لأبي نواس

الصدقة الكاذبة لأبي تمام

الثقة لبعض الشعراء المحدثين

مكارم الأخلاق للشريف الرضى

القناعة لأبي تمام

الصديق لأبي العتاهية

كلمات فى الحكمة للمعري

الحلم لبعض الشعراء المتقدمين

ألم الموت للمتنبى

حب الحياة للمتنبى أيضاً

الشجاعة للمتنبى أيضاً

صفحة

	الأشعار حرب الأخيار لبعض الشعراء المتقدمين
٢٣٤	تحسين الفرصة لأبي العتاهية
	الاباء لبعض الشعراء المحدثين
	الحب المعتدل للشريف الرضى
٢٣٥	عزة النفس لبعض الشعراء المتقدمين
	كلمات لمحمود باشا سامى البارودى
	« مع ترجمته »
٢٣٦	شورور العالم لأحمد شوقى بك
	« مع ترجمته »
٢٣٧	كلمات لامعايل باشا صيرى
	« مع ترجمته »
٢٣٨	سجن الفضيلة لحافظ إبراهيم
٢٣٩	(قسم المنشور)
	وصايا حكيمية من أعراية لولدها
٢٤٠	أدب الزوجة لأعراية توصى ابنتها ليلة البناء بها
	كلمات فى الأخلاق لعلى بن أبى طالب
٢٤١	« مع ترجمته »
٢٤٣	أدب الحاشية لأحد الأمراء العباسيين
	كلمات فى الآداب لابن المقفع
٢٤٤	« مع ترجمته »
٢٥٥ ✓	أدب التربية لهارون الرشيد
	الاقتصاد للبديع الهمداني
٢٥٦ ✓	« مع ترجمته »
٢٥٨ ✓	أيها المخزون لمحمد بك المويلحى

6.12465392

7.13822470

Due

PJ
7601
M3
1937



1 0 0 0 0 1 3 2 7 2 7



